حميد العقابي

أقتفي أثري...

رواية

مكتبة
الفكر
الجديد





اقتفي أثري....

حميد العقابي

أقتفي أثري....

روايـــة

مكتبة
الفكر
الجديد

طوى

Book: AKTAFY ATHARY

الكتاب: أكتافي أثري

Author: Hamid Alaakaby

المؤلف: حميد العقابي

Third Edition 2008

الطبعة الاولى ٢٠٠٩

Cover photograph: Pablo Royz

لوحة الغلاف: بابلو رويز

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE,LONDON,NW2,UNITED KINGDOM

com.Email: tuwa@london

TEL: 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع: منشورات الجمل

©Al-Kamel Verlag 2009

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany

Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.d

(jeg haaber , at jeg flyver ligesom en hest ,
men desvearre hesten kan ikke flyve)

(أتمنى أن أطير مثل حصان
ولكن للأسف الحصان لا يطير)

نور حميد

٤ سنوات

الفصل الأول

اخيراً

سمحتْ لنا الظروف الجديدة بالعودة إلى الوطن، ففي لحظة سقوط التمثال كان كلّ منا يفكر بطريقٍ توصله إلى هناك، بل إنّ بعضنا قد شدّ رحاله منذ تلك اللحظة دونما تفكير بما ستأتي به الأيام. وفي أيام قليلة بعد ذلك اليوم أصبحت العودة إلى البلاد حقيقة بعد أن كانت مجرد فكرة لا تتحقق إلا في كابوس يستيقظ بعده الرائي وهو يحمد الله أنه بعيد عن الوطن، حتى أصبح الوطن مكاناً شاغراً في نشيد يردده لاوعيّ جريح وأغنية محبطة تثير الشجن أو حنيناً يستحلب قصيدة من ضرع ذاوٍ.

«نعود معاً».

كلما التقيتَ بصديقٍ، يقترح عليك أن يرافقك أو ترافقه في طريق العودة، وهكذا أصبح عددنا نحن مجموعة المغتربين الذين قررنا أن نعود معاً من كل جهات الأرض يشكّل قافلة كبيرة. هل كان ذلك بدافعٍ غريزي كما هو حال الطيور المهاجرة؟ أم أن الخوف من شيء غامض هو الذي دفعنا إلى هذهِ الألفة المصطنعة؟ فحتى الأمس القريب كان أحدنا لا يطيق الجلوس إلى الآخر ساعةً وكل منا كان مشغولاً بهمومه الشخصية وأحزانه وربما بمغامراته الدونكيشوتية. كيف أمطرَ إذاً هذا الصحو ودّاً؟ كانت لعبة

نردٍ يبدؤها صديقان للتسلية أو قتل الفراغ تنتهي بمعركة تسيل فيها دماء وتكسر أنوف، عاهرة قبيحة يلفظها الشارع تكون سبباً في عراك أخوة، جدل سياسي عقيم يولِد أحقاداً بين صديقين.

هل كانت لحظةُ سقوط التمثال تعزيماً فتح أبواباً نحو سماء كان أحدنا لا يفكر أن يرفع رأسه نحوها؟ هل كنّا ونحن نشاهد المشهد على شاشات التلفزيون نتطهر من أحقادنا التي اندلقتْ من قربةِ نفوسنا وسالت إلى مجاري تصريف الأدران؟

لم يتجرأ أحد منا على البوح أو حتى التلميح بهذا الخوف كأننا متواطئون على الصمت، ثم جاءت أخبار الفوضى التي عمتّ البلاد بعد زوال النظام القديم وقطاع الطرق الذين أتاحتْ لهم ظروف الفوضى وغياب الأمن أن يخرجوا بجرأةٍ من مخابئهم فوجدنا ذلك مبرراً لخوفنا الغامض والمتكلس في نفوس أذاقها الوطن والمنفى مرارة أنستها طعم الحياة.

اقترحَ أحدنا أن نلقي نظرةً أخيرة في طريق عودتنا على الأماكن التي تركتْ آثارها في أرواحنا، فمررنا بمدنٍ ودخلنا حدائق وحانات، عبرنا جسوراً وزرنا مستشفيات وسجوناً ومقابر. حاول البعض أن يبوح بكرهه لتلك الأماكن مُعبّراً عن فرحه بالعودة وهو يقسم بأغلظ الأيمان بأنه لن يغادر أرضه مرة أخرى حتى لو كلفهُ ذلك حياته وحياة أطفاله، لكنه لم يكن واثقاً من كلامه هذا فقد رأيتُ في عينيه وعيون رفاق رحلتي ما شعرتُ به تلك اللحظات، حيث أني كنتُ أشعر بحميميةٍ وحب لكل حجرٍ مررتُ به على هذهِ الأرض الشاسعة، حتى المقابر بدتْ لي وديعةً والسجون رحيمة، كان الحزن لفراقها كفاً تخنقني وأنا أودع كلّ هذا الجمال. هل كان الجمال يقيم جنبي ويسير معي واستيقظ على صوته كل

صباح كأغنيةٍ عذبة وأراقصه في نشوتي امرأةً فاتنة وحينما أغفو أسمع صوته كتنويمة أمّ وأشعر به يداً تهدهدني وتداعب بقايا شعري الأبيض، أكلّ هذا الجمال كان هنا ولم أكن شاعراً به؟ أم أنه هبط في غفلةٍ مني؟

نافذة تطلّ على غابةٍ وأطفال يلعبون عند بوابة البناية وأنا أجلس أتأملُ المشهد منتظراً قدوم ساعي البريد برسائل أنتظرها بشغف، رسائل أغلبها لا يحمل أخباراً سارة. يأتي ساعي البريد. أهرع إلى باب شقتي منتظراً الرسالة التي ستنزلق من فتحة البريد، يتوقف، فتتوقف دقات قلبي لكنه يجتاز باب شقتي، أسمع وقع قدميه تصعدان السلالم إلى الطابق الأعلى، ربما سيعود مرة أخرى، ربما نسي الرسالة في حقيبته، سيتذكرها ويعود. يخرج من بوابة العمارة وأسمع صوت دراجته البخارية تشخط الأرض، لكني أبقى عند النافذة منتظراً قدوم ساعي البريد، واقفاً مثل تمثال شمعٍ يلوذ بالجليد. الثلج يهطل، الأشجار عارية، الشوارع فارغة والوحدة تعوي في الرأس والهواجس بنات آوى يغرزن أنيابهن في خشب الباب. أخرج للشارع... كل يوم بوجهٍ جديد، مرةً بلحيةٍ كثّةٍ وهيئةٍ رثّةٍ ومرةً أخرج أنيقاً، لكنني وكلما مررت في طريقٍ يعرفني المقيمُ وابن السبيل، فغربتي دليلٌ وعلامة فارقة، وليس من قناع يصلح لي. صباحاً أول ما تستيقظ آلامي وشبقٌ منتعظٌ، أتلمسُ جسدي عضواً عضواً... ها أنا أحيا ثانيةً، وكما أتفحصُ أعضائي أتفحص ذاكرتي وأهشّ على ذباب الأوهام بكتاب العمر. في آخر ساعات الليل آخر ما تغفو آلامي والشبق المنتعظُ، أتلمس جسدي ثُانيةً، ها إني مازلت حياً، أندم.. أندم.. لكن، لا أتعظُ. في غرفتي المظلمة أطلقُ صعّاداتٍ من نار الوهم تضيء الليل، فأضحك.. أضحك مثل طفل وأنا أرى النار تحرقني. انتهت سنةٌ ومفكرتي السنوية

تخلو من قصيدةٍ أو خاطرة أو فكرةٍ أو موعدٍ. لم يلد أحدٌ ولم يمتْ أحدٌ، لم يزرني أحدٌ وما زرتُ أحداً... مفكرتي خالية إلا من عشرةِ مواعيد مع طبيب الأسنان، فمي الذي لم يذق قبلة واحدة قد خسر عشرةَ أضراس.

ولكن لماذا أشعر الآن بأن كل شيء كان جميلاً؟

... هكذا فجأة اكتشفَ بعضنا أن هناك أموراً كثيرة عليه تصفيتها قبل العودة، حتى الذي كان عاطلاً عن العمل اكتشف أن له عملاً يجب إنجازه ومهماتٍ يجب إتمامها، البيت، العائلة، الأطفال ومدارسهم وهل بإمكانهم تحمل حرارة الطقس والتلوث البيئي الذي انتشر في البلد من جراء الأسلحة التي استخدمت في الحروب؟

«لتكن سفرة اكتشاف أولاً».

«سنترك عوائلنا هنا ونعود وبعدها سنقرر العودة جميعاً إلى الوطن الحبيب».

هكذا وجد البعض حلاً لهذه اللاقناعة، لذا فقد كانت قافلتنا تضم رجالاً وبضع نساء امتصت الغربة شبابهن فلم يبق منهن سوى ذكرى أنوثة، نساء وحيدات، عوانس، مطلقات، أرامل، ركاماً، هشيماً، كتلاً سوداء خاوية تقذفها ريح صفراء فيتلاشى أنينها مع صفير العواصف الرملية فلم يبق من دليل على آدميتها سوى الحزن اللامع في العيون.

كانت حانة (مفترق الطرق) أول قلاعِ الغربة وآخرها للعائد ولنا فيها ذكريات لا تنسى.

«ربما التقينا بنادلةِ الحانة مرةً أخرى واغترفنا من حكمتها قبساً ينير طريقَ عودتنا».



قال رفيقٌ فأضاف آخر ضاحكاً ليموّهَ الشكّ والتردد وليبدو أمامنا واثقاً من نفسه:

«وربما وجدنا السيد جلجامش وسمعنا منه حكاية العشبةِ والأفعى».

ضحك الرفاق بل بالغ البعض بإطالة ضحكته الفاضحة للخوف والتردد الذي ارتسم بجرأة على وجوههم حينما قلتُ دون أن أرفعَ رأسي عن الأرض:

«وربما سيكون في الحانة القرار الأخير».

ساد صمتٌ ووجوم على الوجوه التي غارت نظراتها كأنها تفتشُ عن خاتمٍ ضائعٍ في الرمال. شعرتُ بالندم لثقل عبارتي على نفوس رفاقي التي كانت طافحة بالأمل وإنْ كان أملاً محاصراً بالحيرة والشك، ولكي أعيد إلى رفاقي بعض تفاؤلهم قلت:

«على كل حال إن الطريقَ إلى إيثاكا في كل حين أجملُ من إيثاكا، ولم تخدعنا فقد منحتنا هذهِ الرحلة الجميلة... كما يقول كافافيس».

لم تترك إشارتي أي انطباعٍ واضحٍ على الوجوه التي لفّها ضبابٌ فشعرتُ وكأن الوقت غير مناسب لمثل هذه التلميحات المبطنة بالإحباط، أو ربما كنتُ أنا نفسي أحاول الهربَ من صدق مشاعري الخائفة، غير المقتنعة بالعودة لسببٍ أجهله.

قطعنا الطريق إلى الحانة بصمتٍ كأننا سائرون في حقل ألغام.

على شفا الأرضِ
كنّا نبتني حجراً

نطوفُ حولهُ،
وهماً قد سقيناهُ
بالأغنياتِ
لعلَّ الحلمَ يُرجعنا
في دربِ صدٍّ
مشينا فيهِ فتيانا

(مقطع من قصيدة كتبتها في طريق عودتي كي انشدها في حضرة نادلةِ الحانة)

«كل شيْ تغير»

عبارة انطلقتْ من أفواهنا في لحظةٍ واحدة عندما لاحتْ لنا (أو هكذا تراءى لنا) من بعيد أنوار الحانة الوامضة بجنون وتناهى إلى أسماعنا صوت الموسيقى الصاخبة، ونسينا بأن السنوات الطويلة التي قضيناها في المنفى كفيلة بتغيير كل شيء، ألم نتغير نحن؟، بل إننا نسينا لحظتها بأننا كنا على يقين من ذلك وقد وطنّا أنفسنا قبل انطلاق رحلة عودتنا على تقبل الواقع حتى لو كان مرّاً.

كل شيء تغير.

لم تعد الحانةُ ذلك القبو المنزوي ذا النوافذ الصغيرة والتي ينبعثُ منها ضياء يشبهُ هالاتٍ بنفسجيةً تحيط برأس ولي. حانة (مفترق الطرق) التي لا تقع على مفترق طرقٍ كما يشي اسمها، بل يبدو أن اسمها ذو مغزى عميق يلمسهُ من يرتادها ويتأكد حينما يرى وجوه روادها وحين يرتشفُ خمرتها

ويسمعُ حديثَ نادلتها الجميلة التي على الرغم من عريها ومفاتن جسدها فأنها تشيعُ في نفوس روّاد الحانة عفّة ونبلاً نادرين. ولأن الحانةَ تقعُ على درب الصدّ فليس لها روّاد دائمون والخارجُ منها لا يدخلها مرةً أخرى ولكن سيحملها معه أينما يرحل، فمذاقُ خمرتها يعطّر الأنفاس ويبقى لصيقَ اللسانِ والذاكرة، وكل خمرةٍ بعدها مرارةٌ ولغو، ونادلة الحانة برقتها وحديثها الذي أخمن بأنهُ حديثٌ متكرر، جديدٌ على سامعه وحكمتها الخالدة التي لم يبطلها الزمان، بل جسدها العابق برائحةِ أنثى بتول يجعل صورتها عالقةً في الروحِ والجسد كصورةِ الأم التي لا تقارن بامرأة أخرى.

الطريقُ إلى الحانة ليست كما حسبنا، فعلى الرغم من أن أنوارها الوامضة تبدو لصقَ عيوننا وأغانيها الصاخبة نسمعها بوضوح إلا أن الطريق كانت بعيدةً، فها نحنُ قد قضينا يوماً كاملاً ونحنُ نسيرُ باتجاهها ولم نصل، حتى خطرَ في ظننا بأنها ليست حانة (مفترق الطرق) التي عرفناها، وقال أحدنا:

«إنها سرابُ حانةٍ».

فعلقَ آخرُ:

«بل حانةُ السراب».

همّ شخص ثالث أن يقول شيئاً لكنه يبدو قد نسيَ ما يريد قوله، أو ربما تداركَ أمراً قبل أن ينطق به ثُم أصر على صمته على الرغم من إصغائنا إليه.

في البدء كانت حانة (مفترق الطرق) مجرد فكرة خطرت في ذهن أحدنا

لكنها سرعان ما تم التواطؤ بيننا على وجودها، ولم يسأل أحدٌ منا عن حقيقة وجودها أو مكان وجودها، فلم نكن جميعاً قد غادرنا الوطن من نقطةِ حدودٍ واحدة أو من جهةٍ واحدة، بل إن أغلبنا قد غادره من الجهة الشرقية أو الشمالية وها نحن نعود إليه من الجهة الغربية، فهل كانت (مفترق الطرق) حانةً أم حانات، ولكن ـ وكما قلتُ ـ إنها فكرةٌ تجسدتْ كالحقيقة في أذهان الراحلين، ولأنها فكرة فقد تحولت بالوهم ومرور الوقت إلى رمز وطقس، فصار الحج إليها فريضةً على العائد إلى الوطن كي تكتمل دائرة المنفى.

انتفض البعض كمن يستيقظ من نومه أو كمن يكتشف أمراً بعد سوء تقدير:

«وما شأننا بحانةِ مفترق الطرق ونادلتها؟»

فهبّ آخر جافلاً بعد أن سمع كلمة (حانة) وراح يلعن صحبته لنا مردداً:

«استغفر الله، استغفر الله».

ظهرتْ أولى بوادر الانشقاق في صفنا ولولا حلول الظلام والإعياء الذي بدا واضحاً على الوجوه لربما تشتت جمعنا ولكن هذا لا يخفي الأمر فقد ظهرت الفرقة بيننا واضحة أو بالأحرى عدنا إلى ما كنا عليه وكأن ما حدث في الوطن من تغييرات كبيرة والتجربة العميقة التي خضنا غمارها والدرس البليغ الذي تعلمناه في غربتنا غير كاف لكي يطهّرنا من أحقادنا التي توارثناها. افترشنا الأرضَ وأضرمنا النار في الشوك والعاقول الذي جمعناه وجلسنا نتأمل ألسنة اللهب وعيوننا تخترق أفقاً يقع خلفنا، أفقاً لا نراه ليس بسبب الظلام الذي حلّ في هذه الصحراء المترامية بل لأنه فكرة غائمة الملامح، رجراجة تسيح على الخاطر مثل الزئبق، وما أن

تحاول مسكها حتى تتسرب من بين الأصابع تاركة في الذاكرة ثقلها وملمسها الخشن. ليس الإعياء وحده الذي جعلنا نغط بصمتٍ قلقٍ بل ثقل السر الذي نحمله في أرواحنا المتعبة فكان كل منا يداري ماردَ قلقهِ بالصمت والعزلة.

هبتْ نسائم صحراوية باردة من جهة البحر، التصقنا ببعضنا فعادت ألفتنا التي غدت كالمد والجزر. تكفل أحدنا بإحضار الشاي الذي أعلن رفيقنا بأنها المرة الأخيرة التي نشرب فيها شاي المنفى، فغداً سنشرب شاي أهلنا المطعم بالهيل والمُخدّر على الفحم، سنشربه عند أول نقطةٍ داخل الحدود.

بعد أن شربنا الشاي دبّ فينا نشاط وفرح غريب فانطلق البعض يتمطى طارداً عنه التعب وراح الآخر يدندن بأغنيات قديمة وتفتحت شهية الرفاق للكلام فَرُوِيَتْ قصصٌ ونكات كأن كل منا كان يمرن ذاكرته لكي يفتح خزائنها غداً ويروي حكايات سنوات الغربة لأهله وأصدقائه الذين ينتظرونه حتى غدا الكذب والمبالغة طريقة بريئة هدفها التشويق، ولم يعترض أحد على الآخر وهما يرويان الحدث نفسه بشكل مختلف، فكلّ منا تفتحت قريحته على اجتراح أساليبَ جديدةٍ في القص. اقترح أحدنا (وهو يعبر عن نفاد صبره وحنينه الذي استيقظ كماردٍ يتململ في قمقم الغربة) أن نواصل المسير:

«كي نصل ساعة قبل».

فاعترض آخر وكانت في نبرته مسحة من السخرية وافتعال الصلابة في الموقف:

«قضينا دهراً في الغربة ألا تصبر ليلة واحدة».

شعرتُ بأنه غير متحمس للعودة، قال ذلك معللاً نفسه بأن يفيق من الحلم ليجد نفسه ماشياً في شوارع المدينة التي ألفها، كما كان يحدث له طيلة عشرين عاماً مضت.

فجأة هبط صمت مفاجئ وتجمّد الكلام حينما لمعتْ عيون براقة في الظلام، أحاطت بنا كدائرة من نقاط ضوئية، وككمين يتهيأ للانقضاض علينا راحت الدائرة تضيق نحونا. تحفز الرفاق وحملَ البعض منا أحجاراً هي كل ما نملكه من سلاح في هذه الصحراء. العيون تقترب أكثر وحينما انعكس ضوء اللهب عليها تبدت لنا جيشاً من الذئاب التي أحكمتْ حصارها حولنا. تضيق الدائرة شيئاً فشيئاً ونحن نتمركز في منتصفها، النسوة اللواتي كان أغلبهن متحجبات نسين خجلهن والتصقن بأجسادنا وهن يرتعشن من الخوف، البعض يردد ما قد حفظه من آيات وأدعية لطرد الشر، صرخات مكتومة وقلوب تكاد تخرج من صدور الرجال تدق بعنف، لكن الذئاب وبحركةٍ منتظمة أقعت أمامنا بطاعةٍ ودعة.

كانت عيونها المستريبة خالية من الشر، هكذا شعرنا، أو ربما هذا ما كنا نتمناه بعد أن أحكمت حصارها لنا ولا نملك حولاً ولا قوة على ردها. وضعتْ رؤوسها بين قوائمها وغفتْ برقة غريبة.

الفصل الثاني

على الرغم من أن دائرة الذئاب لم تكن ضيقةً إلا أن مجرد الشعور بأننا محاصرون بدائرة من ذئاب كافٍ أن يجعل الهدوء ينفر من أنفسنا، كيف لنا أن نثق بذئاب جُبلتْ على الافتراس وإن بدت وديعة؟ وكيف لنا أن نضمن أنها لن تتغير بعد قليل وتعود إلى طبيعتها الذئبية؟ وربما تتحين غفلتنا لتنقض علينا. الدائرة ليست ضيقة إلا أننا بدأنا ننكمش على بعضنا حتى أصبحنا كتلة واحدة في المركز، كل منا يسمع دقات قلب الآخر وقرقرة أمعائه، بل كل منا يعرف ما يدور في ذهن الآخر.

بعد مرور أقل من شهر على خروجي من الوطن بحت لصاحبي بأمر الكابوس الذي يلازمني كل ليلة وهو أني أراني عائداً إلى الوطن وفي الطريق إلى بيتنا أقع في حصار السلطة. رجل طُمستْ معالمُ وجهه يوقفني في منعطف الشارع أو في ساحة، يطلب مني هويتي، يدققُ فيها ثم ينقض علي فأهربُ.. يتبعني رجال شرطة بملابسهم الخضر، شرطة سرية بشواربهم الكثة ولغاتهم السوقية، رجال الانضباط العسكري ببيرياتهم الحمر وعصيهم ذوات الرؤوس النحاسية، أبي وقد مسك عقاله مثل سوط، وابن الجيران، ومعلم الرياضة اللوطي، ومعلم الدين بسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً... فأركض أركض في شوارع غريبة حتى أدخل زقاقاً

لا يفضي، عندها تقفل الدائرة حولي فأقع في قبضتهم، يقتادونني إلى ساحة الإعدام، يعصبون عينيّ، أسمع حركة انسحاب الأقسام في البنادق وصليل الرصاصات وهي تخرج من مخازنها، أسمع صوت الإطلاقات وهي تخرج من فوهات البنادق المصوبة نحوي وقبل أن تخترق جدار صدغي أفز مرعوباً. ضحك صاحبي وأخبرني بأنه يرى الكابوس نفسه كل ليلة، بعدها عرفت بأن كل المنفيين يرون الكابوس نفسه.

الآن وقد أطبقت الذئاب حصارها حولنا، كان كل منا ينتظر لحظة الإفاقة كي يحمد ربه بأنه يرقد في سريره في بلد يبعد آلاف الأميال عن وطنه بل عن كابوسه. كنت أشعر تلك اللحظة بأن هذه الفكرة تدور في أذهان رفاقي حتى أكاد أسمعها أو أراها، لذلك كان البعض منا يتعمد الاحتكاك بالآخرين لعله يفزّ من هموده ويوقف هذا الهذيان الكابوسي.

«ما أجمل السلام! ، حتى الذئاب غدتْ وديعة؟»

قال أحدنا بعد أن يئس (كما يبدو) من الإفاقة، أو تأكد بأنه الآن في قبضة الواقع لا الخيال. لم يعلق أحد على ما سمعه، فالكل كان مشغولاً بترتيب أمر هروبه. ضحك الرفيق بصوت مرتبك، غير واثق محاولاً تمويه الخوف المستبد به بإطالة ضحكته وحينما تمادى بضحك لا مبرر له نهره شيخ ذو لحية بيضاء غطت عنقه كان صامتاً طوال طريق الرحلة:

«عن أي سلامٍ تتحدث، هذي ذئاب ألا تعرف ماذا يعني ذئاب؟»

«ربما جاءت لحمايتنا».

قال ثانٍ بطريقة اختلط فيها الجد بالسخرية.

ارتفعتْ أصوات الرفاق بالنقاش وكل منهم أبدى رأياً يكاد يكون مختلفاً

بعض الشيء عن الآراء الأخرى حتى ارتفع صوت من بين كتلة الرفاق المتراصة مع بعضها:

«وما الحل إذن؟»

فسادَ صمتٌ.....

شعرتُ بدفء أنفاس لاهثةٍ تسرب إلى رقبتي. التفتُّ بنصف دورة فوجدتُ امرأة قد التصقتْ بي. كانت ترتعش خائفةً. حاولتُ أن أطمئنها فوضعتُ كفي على رأسها لكني سحبتها متردداً، فبادرتْ هي إلى التشبث بذراعي بقوة. أحطتُ كتفيها بذراعي الأخرى، فاستسلمتْ بهدوء وألقتْ رأسها على صدري. كان ارتعاد جسدها والموقف الغريب الذي نحن فيه يطردان هاجس سوء النية فراحت كفي دونما شعور مني تتحرك ببطء أول الأمر على كتفها نزولاً بمسافة بضعة مليمترات على ذراعها الطرية، وحينما شعرتُ باستسلامها واسترخائها وخفوت نبضات قلبها تحررتْ كفي من قيد التردد والرقيب فتحركتْ بجرأة على امتداد ذراعها وظهرها الذي التصق القميص عليه بسبب العرق فامتدت ذراعها لتحيط بخصري غارزة أصابعها المتشنجة في خاصرتي، ملتصقة بي حتى لامسَ نهداها روحي أو هكذا شعرتُ. لا أدري كم من الوقت مر حتى هدأتْ أنفاسها واسترخت أصابعها ببطء فتسرب حنان ودفء لامسا حناياي برقة ونعومة. أطبقتُ صفحة وجهي على رأسها فشممتُ رائحةَ أنوثةٍ أليفة لا تثير الشهوة بقدر ما تثير بي شهامة ومحبة:

« مَنْ يا ترى هذهِ المرأة؟ هل هي إحدى النساء اللواتي التقيت بهن سابقاً أو رائحة أنثى تسربت إلي من أحلام يقظتي؟»

رددتُ مع نفسي فطفح فضولي، ساعدني على ذلك سقوط جدار

«من حسن حظنا أن لا وجود للقمر في السماء وإلا لكان الرعب أكثر حيث أن الذئاب تكون أشد شراسة حينما يكون القمر بدراً».

وحينما لم أجارِهِ بكلامه، قال وهو يزيح جسده قليلاً عني:

«أعرف أن لا شأن لك بالذئاب والقمر فقمرك الآن معك».

مشيراً بخبث إلى المرأة.

..... وفعلاً جاءت التباشير من السماء أو كما أطلق عليها البعض (معجزة)، فحينما لاح أول خيط أبيض في السماء، نهضت الذئاب بتثاقلٍ، تمطتْ محركةً أذنابها ثم رفعتْ أبوازها نحو السماء وأطلقتْ عزفاً عوائياً جماعياً فتسمرنا في المكان مبحلقين إليها بتحفزٍ ودهشة، ومع نزول عصا المايسترو غير المرئية توقفت الذئاب، أدارت لنا ظهورها وتجمعت بكردوسٍ منتظم ثم انطلقت مخلّفةً وراءها غباراً كثيفاً وأسئلةً لائبةً في نفوسنا. انشدّتْ أبصارنا إلى جهة الغرب حيث اتجهت الذئاب حتى بدتْ نقاطاً سوداً على جدار الأفق، نقاطاً ستبقى بالتأكيد على لوحة الذاكرة إلى أمدٍ بعيد وربما إلى أفق النهاية.

انهارَ شيخ وامرأتان على الأرض من أثر مشهد ما كانوا يتوقعون رؤيته وربما فرحاً بانكشاف الغمّة. انشغل البعض بهم بينما قرفصَ البعض الآخر مخفياً رأسه بين ركبتيه، غائراً في أعماق نفسه، باحثاً عن تفسير مقنعٍ لما حدث. وقت مضى ولم يقوَ أحد على النهوض سوى ذلك الخفيف أو الشلولو (كما أطلقنا عليه) الذي راح يرقص في مركز الدائرة التي انهار محيطها وبقيت الكتلة البشرية الخائفة مطنبة في المركز. وحينما تعبَ، توقفَ عن رقصته الوحشية، وبعد أن استرد أنفاسه توجه إلينا بحركة

مسرحية (خفيفة) مزهواً بانتصار صواب رأيه:

«ألم أقل لكم إنها جاءت لتحرسنا؟»

أثنى البعض بسذاجةٍ على حكمته وأضافوا إلى ما قاله كلمات الإطراء وتحدثوا عن طيبة ووداعة الذئاب التي أهداها الله بحكمته لتحرسنا، بل بالغَ البعضُ مقلداً الذئاب رافعاً رأسه إلى السماء، حتى المؤمنون منهم والذين قضوا الليل بالصلاة والدعاء لله كي ينقذهم من هذه الكربة نسوا أن يوجهوا الشكر والحمد إلى رب السماء بل رفعوا رؤوسهم وراحوا يعووووووون.

استيقظت المرأة أو قلْ افتعلت اليقظة، فلا أظن أنّ بليداً استطاع النوم والذئاب تحيط به من كل جهة. رفعتْ رأسها عن صدري. أزاحتْ خصلات من شعرها تدلت على عينيها ورقبتها فلاحتْ لي التجاعيد على جيدها وتحت عينيها التي ساح عنهما الكحل فبدت رموشهما كخيوط من قار. نهضتْ بتثاقلٍ. نفضتْ الرمل العالق ببنطالها، وبنظرة غامضة لم استطع تأويلها وابتسامة لا تخلو من خبث أو شهوة ودّعتني وانضمتْ إلى بقية النسوة.

جلستُ وحدي أخط على الأرض بطرف غصن يابس دوائر مبهمة، أزيلها ثم أخط دوائر مبهمةً أخرى وأزيلها ثانية، فأنا على الرغم من انزوائي وانشغالي بالمرأة التي جعلتني أنبش في صناديق ذاكرتي عن وجوه كل النسوة اللواتي عاشرتهن أو التقيت بهن، إلا أني كنتُ أراقب المشهد بكل حواسي وأصغي إلى كل رأي يقال مكتفياً بالصمت الذي لا أملك غيره في زمن يقف فيه التهور سيّافاً يثرثر في حانة الرقاب.

«هل لنزوة الذئاب هذي علاقة بما يحدث في الوطن؟»

حيطتي وترددي متعللاً بأنها هي التي بادرت باللجوء إلي واستسلامها لدفء ورجولة قبضتي. ارتفعت كفي على جيدها حتى استقرت أسفل حنكها، وببطء رفعتُ وجهها فرفعته بخجلٍ حتى التقت عيوننا فانتقلت رعشة من جسدها إلى جسدي لتستقر عند منطقة الحجاب الحاجز تماماً. كان ضوء عينيها غيرَ كافٍ لكي أتيقن من أني التقيت بها سابقاً، لكن اختيارها لي من بين كل رجال قافلتنا واستسلامها السريع لرائحة رجولتي كانا يوحيان لي بأنها تعرفني، ثم تأكد لي ظني حينما همستْ باسمي واثقةً. أحنيتُ رأسي أكثر نحوها وطبعتُ قبلة بهمس شفتي بين عينيها فارتعش جفناها حتى شعرتُ برموشها وهي تلامس صفحة وجهي، فسرتْ برودة دافئة في جسدي. أعادت رأسها إلى صدري مطمئنةً حتى كأن شوقها إلي قد جعلها لا ترى أبعد من صدرٍ تتوسده بعيداً عن العالم. لحظات وسمعتُ صوت أنفاسها يوحي بأنها قد استسلمتْ للنوم أو للحلم.

لا أدري كم من الليل قد انقضى حينما انتبهتُ إلى الرفاق وقد ارتفعتْ أصواتهم بجدالٍ بل عراك بالكلمات فتذكرت بأننا محاطون بالذئاب. وكلما ارتفع صوت بالسؤال عما يجب فعله للتحرر من هذا الحصار، يعمُّ صمت حائر فلم يتجرأ أحد من الرفاق على طرح تصوره، وإنْ اقترحَ أحد اقتراحاً ينتفض الجميع بوجهه معارضين أو ساخرين حتى يبتلعَ الرجل كلامه على مضض وسرعان ما يتخلى عن رأيه متفقاً مع رأي الآخرين.

«لكن ماذا لو هجمت علينا؟»

«سنقاوم».

«بأي شيء نقاوم؟»

«لا.. لن تهاجمنا».

«...........»

ثم يرتفع صوت الحكمة:

«الكل حادثٍ حديث».

«.................»

وكأن الكلّ كان ينتظر معجزة تهبط من السماء لتنقذه من هذا المأزق الذي لم يكن في حسبان أحد. الذئاب لم تبدِ حركة تدل على نيتها الهجوم علينا فهي لا تزال على الوضع الذي اتخذته بهدوء ودعة تنظف شعرها أو تتثاءب بين حين وآخر، لكن عيونها الصفر المتقدة والمصوبة نحونا لا تسمح لنا بالطمأنينة.

«ومن يطمئن إلى ذئب في صحراء؟»

«.......................»

وكلما أبدتْ حركة مريبة، تحفز الرفاق وتمركزوا متراصين مع بعضهم وندّتْ صرخة خوف من امرأة أو دعاء من كهلٍ. اقترح شيخ أن نقوم لأداء صلاة الخوف فاستجاب لدعوته البعض بتحمس بينما لبّى البعض الآخر بتثاقل أو ربما بخجل أو مجاملة. همسَ لي رفيق غامزاً بخبثٍ وهو يشير إلى بعض رفاقنا وقد تحمسوا لفكرة الشيخ بل بالغوا بإطالة السجود والدعاء ودموعهم تنهمر بغزارة، ابتسمتُ له بلا مبالاة فراح يدنو مني حتى التصقتْ كتفه بكتفي وهو يسترق النظر بخجل بين الحين والآخر إلى وجه المرأة التي تغفو بهدوء غريب على صدري وحينما قرأ في نظراتي إليه صدوداً لفضوله قال:

همسَ لي (علي كارثه) الذي ظل صامتاً منطوياً على نفسه طوال الرحلة، وحينما لم أجارِه بأسئلته الغريبة أردف:

«ألا تعتقد أن لها علاقة بثقب الأوزون؟»

لم يحظَ مني بجوابٍ، وكأن صمتي استفزه (فتكوْرثَ)، هكذا كنا نطلق عليه حينما يغضب وكان أغلب أسباب غضبه تراكماً من حالات كثيرة وأحقاداً يخفيها بداخله يخرجها دفعة واحدة لسبب تافه فيأتي غضبه ساذجاً يثير السخرية وربما الشفقة أكثر مما يثير الحنق عليه، وهذا ما دفعه إلى العزلة متحاشياً استفزاز الآخرين وسخريتهم منه بل إنه كان أكثر ما يتحاشى نفسه ونوبات كورثتهِ. حينما لم يجد لأسئلته أي تأثير علي أو استجابة، طفح الكيل به فبدأ باستفزازي على طريقته:

«هل لك يا..... مثقف أن تفسر لي هذهِ الحالة؟»

«أية حالة؟»

سألته بتجاهلٍ وملل من كثرة أسئلته التي كنتُ لا أحتمل سماعها في أيام الراحة وخلو البال حيث أنه كان يقيم في المدينة نفسها التي قضيت فيها سبعة عشر عاماً بل كان يسكن قريباً من سكني وكلما أثقل في الشرب أو جاءته نوبة الكورثة يطرق بابي في منتصف الليل وينهال عليّ بأسئلته عن الكون وثقب الأوزون وعن فوائد الثوم والدوري الأسباني لكرة القدم. أما الآن ونحن ضائعون في صحراء يكاد أحدنا ينهش لحم روحه وقد اختنق الهواء وغامت الرؤية يصبح الحديث مع علي كارثه بطراً لا يحتمل. ابتسمتُ له بود وربما باستصغار فعاد إلى أسئلته :

« قلْ لي لماذا جاءت الذئاب؟ لماذا ذهبت الذئاب؟»

رضختُ إلى إلحاحه فأجبته:

«لا أعرف».

لم يقنعه هذا الجواب المقتضب فأعاد السؤال بطريقة أخرى:

«أليس لك رأي؟»

«بماذا؟»

«بما جرى في الوطن».

فأجبته:

«لا»

دعكَ وجهه بكلتا راحتيه، وباغتني بلكمةٍ على وجهي أطارت شرراً من عيني، ثم نهض مبتعداً وهو يردد بسخرية:

«هه.. مثقف.. طيزي»

الفصل الثالث

قاربَ النهارُ على الانتصاف وشمس أواخر أيار الصحراوية تمطرُ شرراً. تجمّرَ الرملُ حتى غدت الطريق كصفيحٍ ساخن، الدماء تغلي في العروق والرؤوس تلتهب، عواصف رملية تهب من كل الجهات وأفاعي الهواء تلدغ بسمومها وجوهنا المغبرة ولا شيء يلوحُ في الأفق. قيل لنا بأن المسافة نحو الحدود (شمرة عصا) وها نحن نمشي منذ يومين وكأن الوطن (كعادته) يبتعد عنا أو كأن الطريق تجترّ خطواتنا.

رفضَ حتى أصحاب الجِمال والحمير نقلنا إلى الحدود على الرغم من توسلاتنا وإغراء البعض منا بدفع مبالغ لا يحلمون بها، حتى شرفهم ونخوتهم التي أكلوا رؤوسنا بها لم تحرك ساكناً وهم يرون مشهد النسوة والشيوخ الذين يسحلون أقدامهم وصوت لهاثهم يكسر الهواء، لكنهم رفضوا شماتةً بنا أو كرهاً وربما كانوا خائفين من الاقتراب من وطن الوباء لئلا يصابوا بعدوى الحروب والأمراض.

«أيّ وطنٍ هذا!!»

قال شيخ محني الظهر بسخريةٍ وألم لكنه كان يكابر ويعاند السنين كي يظهر أمامنا فتى يدفعه شوقه إلى اجتراح ألف معجزة.

«أيّ وطنٍ هذا!!»

قال علي كارثه وأضاف:

«ليله ذئاب ونهاره جهنم».

«أيّ وطن هذا!»

قال صالح الأعرج ملتفتاً إلي، وأضاف:

«أتذكر؟ حينما خرجنا منه كدنا نموت مطمورين بثلجه وها نحن نعود إليه وقد تطمرنا رماله وتقتلنا شمسه».

«أيّ وطنٍ هذا!»

قلتُ، وأضفتُ صمتاً إلى صمتي.

«أي وطن هذا!»

لم يورثنا سوى خطوةٍ ضائعة تجهلها الطريقُ، أيّ وطن! نفرُّ منه وإليه مذعورين، نمضي خلف ظلالنا مختبئين لكننا نصطدم بجداره في كل منعطفٍ وزقاق، وأينما نحلّ نجده وأينما نمضِ نره... نحن الواقفين نراه يعدو خلفنا في دورة الأشياء والأفلاك وشوارع المدن البعيدة، بل في دورة كل صفنة أو سَورة ماء أو رمل، وكلما توهمنا التحرر من الحنين إليه نصطدم به، وكلما اصطفينا حانةً وتظاهرنا بالنسيان، يأتينا ليعكر صفونا ويسمم ألفتنا. مرةً يأتي بزيّ راقصةٍ تشدّ لها العيون المُستفَزة فيترك فينا هياجاً وغرائزَ طافحة ونشوة تفسدها عربدتنا التي توارثناها أباً عن جد، ومرة يأتي بزيّ مقاتلٍ، كم أرعبتنا شاراتُ نصره التي يقطر الدم منها، وانكساراتُ راياتهِ الذليلة التي تسد علينا نوافذ آمالنا، يأتي بأقنعة الضحايا التي أدمنت الهزيمة والخسران، ومراتٍ يخرج إلينا من حزننا صامتاً أليفاً أبيضَ خالياً من أي سوء لكنه مبطن بسوء النية ومراوغة العارف بنصب الفخاخ في طريق عزلتنا.

ونحن!!

نحن المساقين منه، فيه، إليه... نروي عنه آلاف الخرافات ونبعد ظلّه الوحشي عن أهدابنا، نخفي صور العاهات والمقابر والقتل ومذابح الأعراض، ونعبّ - منتشين - من دمنا المعبأ في دهاليز الظلمة التي كنا خبرناها في حضنه (الوردي)، عشقناها (كما يبدو لنا) وأطعنا مراتٍ نزواته الوحشية وكم أوهمنا وأغوانا فرفعنا رأس النجم فوق رماحه الملوثة وكنا منتفخين زهواً مادحين سطوته الفاتنة.

ذَهَبُهُ غوايةٌ، ماؤه تأريخ من الدماء والحبر، سرْ على ضفاف أنهاره لن تجد عاشقين أو متأملين شروقاً أو غروباً بل نساء يقدمن النذور (للخضر) كي يُرجع أبناءهن الغائبين أو امرأة تقدم العشاء للماء مصغيةً لأنين ولدها الغريق، أشجاره المغبرة ونخيله المحترق لا تسمع بين عذوقه شدو فاختة سوى نائحات فقدن أحبتهن في الحروب، آبار نفطهِ التي توقِد في صحارى الروح ناراً اهتدى بضوئها البدو المرابون وعاهرات يخبئن واردات موتنا في قوارير عطورهن، سيدهن يراود حزننا عن نفسه فيطيع منقاداً ليولِد أمنا طفلاً يكون هراوةً في كفّه، أو طفلةً ضفائرها حبال مشانق.

نهرب منه فيهرب خلفنا كي يطاردنا، لم يأتِ إلينا (ولو مرة واحدة) كي يسامرنا أو يوآسينا ويعظم أجرنا..... كلنا ثكلَ الأحبة.

«أيّ وطن هذا!!»

أفقتُ من سرحاني على صوت الرفاق وهم يتصارخون بفرحٍ مهللين حيث لاحتْ أمامنا بعيدةً بناياتٌ وخرائبُ حسبناها المخفر الحدودي. دبّ النشاط بنا فأسرعنا الخطى وازداد شوقنا للوصول بل انتشى البعض برائحة

الوطن الذي صار قريباً. كان يسير إلى جانبي (صالح الأعرج)، وكان يقفز ناسياً عرجه من نشوة الفرح.

حينما وصلتُ (قلعة دزه) بعد أن اجتازت السيارة بي عدداً لا يحصى من نقاط التفتيش سلّمني الدليل الكردي الذي جاء بي من بغداد إلى دليل آخر، كان الوقت عصراً من أيام كانون الأول والثلج يهطل بغزارة، سرنا بمحاذاة الجدران الطينية مختبئين عن عيون المخبرين كما أخبرني الدليل، دفع باباً واطئاً لغرفة طينية فاصطدم وجهي بسخونةِ هواء الغرفة المظلمة، أجلسني في الركن وغادر الغرفة بعد أن تمتم كلاماً بالكردية فهمتُ منه بأنه سيعود بعد قليل، خلعتُ حذائي وقد امتلأ بالوحل ومددتُ ساقيّ باتجاه المدفئة الصفيحية المتجمرة فشعرتُ بدفء لذيذ سرى في جسدي. دقائق مرت حتى اكتشفتُ بأن هناك شخصاً ثانياً يجلس متكوراً على نفسه في الركن المقابل لي تحجبه عني المدفئة. نهض باتجاهي مقدماً سيجارة ثم عاد إلى محله في الركن الآخر.

«الأخ من وين؟»

«من الكوت».

أجبته بترددٍ فقد كنتُ خائفاً على الرغم من أن الدليل طمأنني بأن (قلعة دزه) تكون آمنة في مثل هذا الوقت من اليوم حيث ينسحب منها رجال السلطة ويدخلها البيش مركه حتى صباح اليوم التالي حيث يحدث العكس.

«أهلا وسهلاً».

ثم أضاف:

«أنا من بغداد».

دخلتْ صبيّة بيضاء، وجهها جامد وأنفها محمرّ من البرد تحمل صينية وإبريق الشاي. جلستْ بصمتٍ قبالتي ورأسها إلى الأرض. سعلتْ فشعرتُ بأن صدرها يكاد ينشق، وكأن الصوت يخرج من مغاور نخرها تبغ رديء. راحت تصب الشاي بحركة ماهرة حيث أنها ترفع الإبريق بيدها اليمنى إلى الأعلى وتسكب الشاي في الكؤوس التي استقرت على الأرض محركة يدها التي تحمل الإبريق إلى الأعلى والأسفل بنشوة استعراضية فلم تسقط منه قطرة شاي واحدة خارج الكأس. تحدث معها الشاب بكردية طليقة فهمتُ منها بأنه أبدى إعجابه بمهارتها بصبّ الشاي فضحكتْ. كان صوتها يدل على طفولة مقهورة أو مطمورة تحت ركامٍ من الخراب والفواجع وربما اليتم، ولكي أخرجها من الإحراج الذي تسببه لها نظراتنا إليها سألتُ الشاب:

«ولكنك تتحدث الكردية بطلاقة!»

فأجابني بأنه من عائلة كردية تقيم في بغداد واسمه صالح محمد شيروان.

دخل الدليل وتحدث مع صالح الذي ترجم لي ما يقوله بأننا سنغادر (قلعة دزه) فجراً باتجاه الحدود الإيرانية.

عند الفجر جاءنا الدليل بملابس كردية، سارعَ صالح بارتدائها بخبرة المتمرس، أما أنا فبعد أن ارتديتها مقلداً صالح، التفتا إليّ وجلجلتْ ضحكاتهما، لكنهما سرعان ما اعتذرا لفرطِ حساسية أستطيع تخمينها. خرج الدليل وكان القلق يبدو واضحاً من خلال حركاته وخروجه ودخوله إلى الغرفة وكأنه يبحث عن شيء لا وجود له. أربكني قلقه وزاد من خوفي. كان صالح هو الآخر لا يعرف بماذا يفكر الدليل لكنه كان شاباً يجمع في شخصيته المرح والعبث، لذلك بدا لي بأنه لم يشغل باله بحيرةِ

الدليل، ولا بالرحيل أو الوصول. ساعدني على شدّ (البشتين) على خصري وألبسني (الجمداني) ثم تناول كسرة مرآة كانت معلقة على الحائط وقال بودٍ:

«انظر كاك حميد لقد أصبحتَ كردياً».

قلتُ بفيضٍ من عاطفة أو ربما تأنيب ضمير عن جرمٍ لم ارتكبه:

«هذا شرف لي».

فاغرورقتْ عينا صالح بالدموع.

دخل الدليل إلينا يحثنا على الإسراع قبل بزوغ الضوء وحينما سألناه عن السبب أخبرنا بأن هناك ربيّة أخيرة للجيش العراقي في طريقنا على مبعدة ساعة، علينا اجتيازها قبل الفجر. تمسكتُ برسنِ البغل جيداً ونخستُه برقةٍ بكعب حذائي فلم يتحرك. ارتفع صوتُ الدليل بصرخةٍ غريبة فانطلقت البغال مطيعة، بعدها عرفتُ بأن هناك لغة مشتركة ما بين الدليل والبغال، فهي تتحرك وتقف وتميل، تبطئ أو تخب بإشارات صوتية مبهمة يطلقها الدليل فتستجيب لها بإذعان. كانت السماء ملبدة بالغيم والظلام أبيض بسبب الثلج الذي يرتفع إلى حد ركبتي الماشي. كنتُ أفكر بطريقة أقضي بها الساعة المتبقية من الخوف. رددتُ مع نفسي ما ادّخرَهُ الخوفُ والتملقُ لرب العالمين أوقات المحنة، فقرأتُ المعوذتين وآية الكرسي بخجل مَنْ يفتضح أمره أمام السميع العليم الذي لا تخفى عليه خافية. كانت البغال تسير وحدها عارفة الطريق بغريزتها، أما أنا فكل شيء أمامي مغلق أو مجهول. سرنا في مضيقٍ مشرفٍ على هاوية مرعبة كانت الطريق فيه لا تتسع لحافري البغل.

«ماذا لو قرر البغل الذي يقلّني الآن أن ينتحر ويرمي بنفسه في الوادي؟ كما علمت بأنه يفعلها حينما يشعر بالتعب أو الضجر».

«وأي مغفلٍ يثق بنزوات بغل؟»

خطرتْ هذه الفكرة المجنونة في ذهني فرحت أمسّد على رقبتهِ برقّةٍ متملقاً، مُرخياً له العنان مسلّماً أمري إليه مخاطباً إياه في سري بكلمات تليق بحبيبٍ أو بشخص ذي مكانة سامية:

«سرْ يا مولاي، سرْ يا حبيبي، انتبهْ يا سيدي، أنا دخيلك......»

ولكي أبعد هذا الهاجس المجنون الذي استبد بي همستُ لصالح عما إذا كنّا قد اجتزنا الربيّة أم لا تزال أمامنا. وضع سبابته على فمه وأشار إلي بسبابته الأخرى إلى الأعلى ففهمت بأننا نسير تحت الربيّة تماماً. تمسّكتُ برسن البغل وأنا ارتعش من الخوف والبرد كاتماً سعالي بصعوبة. لا أدري كم من الوقت قد مرّ حتى رأينا الدليل وهو يشعل سيجارة ويرتفع صوته بغناء حزين يخرج من حنجرة محترقة ففهمنا بأننا قد اجتزنا الأرض الحرام وسماء الخطر. تضاءل الخوف فأشعلتُ سيجارةً ورحتُ أنفث بمتعةٍ دخانها الكثيف مختلطاً بالبخار. عدتُ إلى رب العالمين فقدمتُ إليه الشكر والولاء وبتملقٍ أقل من الأول. رددتُ بعض الآيات التي هبطت على ذاكرتي فجأة.

التفتَ الدليل إلينا وتحدث إلى صالح فنطّتْ منه صرخة فرح فعلمتُ منه بأننا اجتزنا الحدود العراقية ودخلنا الأراضي الإيرانية فاقترح صالح أن نتوقف لنستريح قليلاً عند نبع ماء متجمد. لم أكن أشعر بقدميّ حينما وطئتا الأرض بل أصبح جسدي كله مثل بالونٍ مشدود إلى الأرض بخيط رفيع. الخدرُ اخترق عضلات جسدي ليصل العظام فلم أشعر بعظمتي

الردنين حينما لامست مؤخرتي الأرض. أخرج الدليل عدة سفره، إبريق شاي أسود وثلاثة أكواب سوداء وأرغفة خبز وقطع جبن يابس، بينما رحنا نحتطب بأيدينا بعض الأغصان اليابسة، وقد كان إشعال النار في الأغصان الرطبة مهمة شاقة فتذكرتُ بيت شعرٍ كانت أمي تردده كثيراً حينما تقف عاجزة أمام سوء الحظ ورحتُ أغنيه بصمت حزين:

«عاندتْ حتى النار ما تقبلْ توجْ

يل ما لكْ محبين أخذْ الخلا وهجْ»

أخرجتُ مجموعة أوراق بيضاء كان في نيتي بطراً أن أسجل بعض مشاهداتي في طريق الرحيل إلى المجهول. أشعلتُ النار فيها وحشرتها تحت الأغصان، وكم كانت فرحتي كبيرة حينما بدأت الأغصان تطقطق والنار تسري فيها ببطء وقد بُحّ صوتي ودمعت عيناي من النفخ. كان ألذ فطور ذقته في حياتي وكان أول فطور خارج الجحيم.

في الليلة الرابعة وبعد مسير يوم مضن، وحينما كنّا ننام متكورين على بعضنا في جامع القرية نتدفأ بأنفاسنا، كنا نسمع بين الحين والآخر صوت انفجار قذيفة، وحينما استفسرتُ عن ذلك علمتُ بأن الجيش الإيراني يقصف في مثل هذا الوقت مواقع المقاتلين الأكراد (من جماعة قاسملو)، أيقظنا الدليلُ بفظاظةٍ وراح يتحدث مع صالح وأنفاسه تتقطع وبحركةٍ من يديه كان يحثنا على التعجيل بالخروج من القرية. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً. أخبرني صالح بأن جماعة من مقاتلي (اليكتي) قد دخلت القرية فازداد غموض الموقف إبهاماً أكبر، حيث أني كنت أظن منذ تجاوزنا الحدود العراقية الإيرانية بأننا خارج منطقة الخطر.

«من هم اليكتي؟»

سألتُ بسذاجة الغافل فأخبرني:

«الاتحاد الوطني الكردستاني».

فأعدتُ السؤال ثانية:

«ومن هم جماعة الاتحاد الوطني الكردستاني؟»

فقال وقد بدت عليه علامات الضجر من إلحاحي في هذا الوقت:

«جماعة جلال الطالباني».

تسللنا بحذرٍ بين البيوت الطينية وحينما أصبحنا خارج القرية علمتُ من صالح بأن جماعة جلال الطالباني تتحالف مع السلطة العراقية وأنهم يسلّمون إليها الفارين من جنود أو سياسيين، بل شكّلوا في بعض المدن والقصبات العراقية مفارز مشتركة لهذا الغرض.

أشار إلينا الدليل بأن نواصل السير مشياً على الأقدام لاجتياز المسافة التي تفصلنا عن أقرب مدينة إيرانية. تقدم الدليل أمامنا وسرنا بنسق أنا الثالث فيه. الثلج يصل ارتفاعه حد السرّة وكنّا نزيحه بأجسادنا متعثرين بالصخور الناتئة، وكان الدليل يحثنا على عدم التوقف لئلا نتجمد. سأل صالح عن إمكانية البقاء في القرية حتى الصباح وعندها سنجتاز الطريق فردَّ الدليل بحسمٍ وارتباك بأن مفارز اليكتي وجماعة قاسملو منتشرة في القرية وخوفاً من أن يكتشفوا (العربي) معنا فنقع في ورطة. شعورٌ غريب انتابني كيف أنا البائس المسكين الذي لم يأخذ من شبابه عشر ما يحق له قد تحولتُ عبئاً بل ورطة.

ظهرتْ أولى أنوار الفجر. التفتُّ إلى الوراء فأدركتُ بأننا قد اجتزنا مسافة ليست بالقصيرة فتلاشى في نفسي أملُ العودة إلى القرية، الأمل

الذي كنتُ أمنّي به نفسي حتى لو كان ثمنهُ راسي. ثلاثة من أبناء آدم يجتازون مفازة ثلجية، لو أطل أعمى من السماء السابعة نحو الكرة الأرضية لرأى بوضوح ثلاث نقاط سوداء تتحرك على مساحة بيضاء، ليحسبها ما يشاء، ثلاثة ذئاب جائعة تبحث في الثلج عن قوتٍ مطمور أو ثلاث ذبابات ضائعة، فمن المؤكد سينكسر قلبه شفقةً على هذه المخلوقات الضعيفة الضائعة في دوامة الثلج ويتصدق عليها بفُتات رحمةٍ من لدنه وهو المقتدر الذي وسعت رحمته كل شيء.

أشار الدليل بيده إلى جبل أبيض بعيد، تقع مدينة بيرانشهر الإيرانية وراءه.

«ولكن أين هو الطريق إلى الجبل؟ بل أين هو الجبل؟»

رددتُ مع نفسي، حيث أني كنت أتخيله لبعده واقعاً خلف خط الأفق والوصول إليه من سابع المستحيلات. ولكن ليس أمامنا سوى الوصول إليه أو الموت متجمدين في هذه المفازة الثلجية المترامية الأطراف، وأن المسافة التي قطعناها لأكثر من أربع ساعات جعلت من غير المنطقي التفكير في العودة.

إذن لابد من الوصول إلى (الجودي).

هناك سترسو يا نوح الضائع في عتمة المسافات، وستنتهي رحلةُ إبحارك العبثية للبحث عن النجاة. ستجلس على قمة الجبل وتنظر إلى الآفاق البعيدة سيُسكِركَ الزهوُ وتفخر بأنك لست الناجي من الأهوال فحسب، بل إنك الخالد الذي اجتاز العوالم ليبني أسطورة يتناقلها أحفاده من بعده، وستحلم بأن توقفَ دوران الأرض التي تدور بنا على قرن كركدن، هناك الجبال ستبدو أمامك نهوداً شامخة، وستمسك حلمةَ صخرةٍ وترضع

حليب شهوة عذراء، هناك ستنجب الأرض من صلبك وحدك سلالة الإنسان ذي المآثر الأسطورية، الإنسان المتسامي، الإنسان الملاك، هناك ستبني مصايف للصيف القادم يؤمها السياح من كل بقاع الكون لتروي لهم كيف روّضتَ الفصول وجعلتَ المسافات ذلولاً تسحبُ خلفكَ أذيالها، وكيف اجترحتَ فجراً في مرايا الغروب وكيف انهارتْ أمام معولك قامة الثلج ورفعتَ الأرض إلى الرب أو أنزلتَ الرب إليها، وجعلتَ الإنسان سيداً، ....

هنااااااااااااك........ على الجودي

....

نحن الآن على قمة (الجودي)، أشار الدليل إلى أسفل الجبل حيث كانت الطريق تبدو مثل خيط رفيع. لاحتْ بضع شاحنات عسكرية تتحرك عليه. مدّ الدليل يده بحركة توحي بأن مهمته قد انتهتْ عند هذا الحد. أخرجتُ قصاصة بيضاء احتفظتُ بها لهذه اللحظة وكتبتُ عليها رسالة إلى أهلي أطمئنهم بالوصول إلى جنة الخلاص. سلّمتها إلى الدليل ومبلغاً من المال؟ عانقنا بأخوةٍ، وقفل راجعاً بخفةٍ كأنه تخلص من عبءٍ ثقيل.

«هذه فرصة لنجرب رياضة التزلج على الجليد».

قال صالح مازحاً.

منحدر ثلجي شديد الانحدار ترتسم عليه طريق بعرض ذراع ملتوية كأفعى رسمتها آثار أقدام وحوافر ماعز جبلي. في البدء خطونا بحذرٍ شديد متمسكين بشجيرات صغيرة وأشواك وصخور ناتئة زاحفين على مؤخرتينا.

اختل توازني فانزلق جسدي وتدحرجتُ ككرةٍ ملساء، وفي لحظة غريبة تشحذ الإرادة كل قوتها أحطتُ رأسي بذراعيّ وانزلقت كلحظة عابرة بين أصابع الوقت أو كانزلاق الجنين من بوابة الوجود.

أحاط بنا ثلاثة جنود إيرانيين مدججين بالبنادق وصفوف الرصاص.مدّ أحدهم إليّ يده فساعدني على النهوض بينما توقف الآخرون مسددين بنادقهم نحونا. نهضنا رافعين أيدينا إلى الأعلى وجرى تفتيشنا. أخرج من جيبي نسخة من المصحف وقد كادت تتلف من البلل. قبّل الجندي المصحف وأعاده إلي وهو ينحني واضعاً يده على صدره بتهذيب أعاد السكينة إلى نفسي، وبعد أن تأكد الجنود من براءتنا أجلسونا على حافة الطريق وقدموا لنا الماء من زمزمياتهم، حتى وصلت سيارة عسكرية نقلتنا إلى معسكر صغير يقع في مدينة صغيرة، (بيرانشهر) كما قرأتُ اسمها على لوحة مثبتة عند مدخلها. التقينا هناك بآمر المعسكر وهو شاب ذو لحية خفيفة تميل إلى الشقرة قليلاً، سألنا (وقد كان يتكلم بإنكليزية مبسطة) بضعة أسئلة عن أمور عسكرية وعن مواقع الجيش العراقي وفيما إذا كنا قد التقينا في الطريق بجماعات مسلحة، وحينما لم يجد في معلوماتنا ما يبغيه ودّعنا بابتسامة ودية فخرجنا بصحبة جندي إلى قاعة صغيرة تضم أسرّة لجنود المعسكر.

في اليوم التالي جاءت سيارة عسكرية صغيرة ونقلتنا بصحبة ثلاثة جنود إلى مدينة أروميا، وحينما دخلنا المدينة وكانت تبدو لي بأنها مدينة واسعة وذات عمران متميز، طلب منا أحد الجنود بحركات من يديه أن يعصب عيوننا فرضخنا بسهولة، بعد ذلك شعرنا بأن السيارة تتوقف. اقتادونا برفق إلى غرفة حيث كان يجلس ضابط شاب وجندي يضع أمامه أوراقاً راح

يسجل عليها ما يملي عليه الضابط، وإلى جانب مكتب الضابط كان يقف متسمراً جندي ذو سحنة سمراء ريفية عرفنا بعد ذلك بأنه عربيّ من مدينة الأهواز مهمته الترجمة، وبعد بضع أسئلة عن أسمينا وهويتنا، أشار إلى جندي كان يقف وراءنا أن يذهب بنا إلى الـ (زندان) وهي أول كلمة فارسية التقطتها أذناي بوضوح وتعني (السجن).

غرفة صغيرة لا أثر للضوء فيها. أرضها من الكونكريت وقد انتشرت فيها الحفر الصغيرة ونتأت قطع من الحصى كالمسامير، الجدران سوداء عارية انتشرت عليها ذكريات السجناء والعابرين وخارطة من الشروخ التي تنز منها الرطوبة والروماتيزم، باب حديدي متآكل بالصدأ في أعلاه فتحة مربعة الشكل صغيرة تكفي لمشاهدة الوجه وحده. ظلام على الرغم من أن الوقت لا يزال عصراً وقد سلبونا قبل أن نُرمى في هذا الجبّ من أي احتمال للضوء حتى علبة الكبريت.

«غرفةٌ لا تختلف كثيراً عن غرفٍ كثيرة سكنتها بل ربما هي أفضل بكثير من غرف الحيدرخانه أو فنادق النهضة والعلاوي، وشعور كامل بالبراءة من أي أثم، إذن فمن أين يأتي هذا الشعور بالقلق والمهانة؟»

«الحارس بوجهه الغاضب وخفة حركة يديه وهو يسلّ سلسلة المفاتيح من نطاقه ثم طريقة إفراده للمفتاح الكبير وإشهاره بوجهك وهو يصفر لحناً غبياً، نشوته الفاضحة وهو يولج المفتاح في ثقب القفل الكبير، طربه لصوت قلقلة المفاتيح، كفّه اليمنى وهي تسقط كل مرة في المكان المحدد بين دفتي الكتفين أسفل الرقبة تماماً، دفعها إياك، تعثرك بالظلام وأنت تدخل الغرفة»....

تعثرنا بكدسٍ من البطانيات العسكرية تعطّ منها رائحة عفونةٍ وغبار

رطب يثير الغثيان ويهيج حساسية الأنف. ليس المكان وحده موحشاً بل للوقت وحشة تنخر الروح، يخطو بطيئاً كأنه يجتاز مفازة مزروعة بالمسامير. قبل لحظات كنت أشعر بفرح وغبطة بعد أن صارت خلفي كوابيس الحرب وأيام التخفي والموت المتربص بي كل لحظةٍ.

«فلمَ الحزن إذن؟»

«أيام.. وربما ساعات ويصبح حتى هذا السجن ماضياً، بلعبةٍ ذهنية مسلية وبأحلام يقظة وتأمل، بأغنيةٍ وتلاوة من القرآن، بامرأةٍ جميلة يأتيك بها الظلامُ من سابع المستحيلات ويرميها في راحتك نشوةً سريةً.. وهكذا ستمر الساعات سريعة وسيأتي عندئذ النوم، هذا السيد السمح ليطوي صحارى الوقت....»

«لكن اليوم الخميس!»

قال صالح وكأنه تذكر أمراً خطيراً، وحينما لم يسمع مني تعليقاً أضاف:

«هذا يعني أننا سنبقى هنا إلى يوم السبت في أحسن الأحوال».

قلتُ وأنا أحاول أن أفتح جفنيّ بصعوبة:

«انتظرنا الحرية سنوات طويلة ولم يبق إلا القليل».

طُرق البابُ فنهضنا، صوت قلقلة المفاتيح في الأقفال أثار الرعب في نفوسنا المذعورة أصلاً ثم أطلّ علينا جندي ضخم الجثة ذو صوت أجش وهو يصرخ:

«صلاه أغا صلاه»

خرجنا فرحين لأول فسحة للحرية وشم الهواء. كنا نسير طليقين دون مراقبة من أحد في باحةٍ يتوسطها حوض للوضوء تجمع عنده الجنود

مشمرين عن أذرعهم. همس لي صالح بأنه لا يعرف طريقة الوضوء على المذهب الشيعي فأشرت إليه بأن يقلد حركاتي. وفجأة أصبح الوقت ذا قيمةٍ ملموسةٍ نحرصُ على دقائقه وثوانيه ونعدها كبخيل يعد قروشه الثمينة، وهكذا استطعنا أن نطيل المكوث عند قضاء الحاجة ونمطّ زمن الوضوء والصلاة وقد بالغنا كثيراً في الدعاء لكسب أكثر وقتٍ من الحرية.

استيقظتُ منتصف الليل على صوت أنين صالح، كنت أحسبه أنينَ تَعَبٍ ولكني لم أستطع أن أعود إلى النوم إلا بصعوبة. في الفجر وحينما أيقظونا للصلاة كان صالح يشكو من ألم في أطراف أصابع قدمه اليمنى وعلى الضوء في الباحة رأينا زرقة وورماً واضحين، في الصباح بدأ صالح يشكو ويتلوى من الألم. طرقنا الباب بشدة فهرع إلينا حارس ومن الفتحة الصغيرة تعالى صراخه متذمراً. تحدثتُ معه فلم يفهم وحينما حاولتُ أن أوضح له بالإشارة مدّ كفّه نحوي من الفتحة دافعاً وجهي بغضبٍ وهو يردد:

«بدر سك، بدر سوخته»

عند العصر كان صالح يتقلب ويصرخ وقد ازرقّت قدمه وتورمت وبدأ سائل أصفر يخرج من تحت اظفر الإصبع الكبيرة. لم تجدِ توسلاتنا بالحارس نفعاً ولم يكلف نفسه فتح الباب، بل لم يفتحوا لنا الباب حتى للصلاة أو الذهاب إلى التواليت. كانت ليلة سوداء وكان سلوك الحراس الإيرانيين الفظ دافعاً لإعادة النظر بالوهم الذي خلقناه لرجال الثورة الإسلامية الإيرانية حينما كنا لا نزال في العراق، وحينما كنا نمنّي النفس بالوصول إلى إيران. في صباح السبت رحتُ أطرق الباب بكلتا قبضتي خائفاً بعد أن خمدتْ أنفاسُ صالح فحسبتُ بأنه قد ودّع الحياة. هرعَ أكثر من حارس غاضبين متحفزين وحينما وجدوا صالح وقد أغمي عليه تنادوا

متصارخين فحُمل على بطانية وأغلق باب السجن علي. دقائق وفتح الباب ثانية وسمحَ لي بالخروج إلى باحة المعسكر. قدموا لي فطوراً وسجائر فتوجستُ أن أمراً خطيراً قد حدث لصالح وألا فما معنى هذا الاهتمام المفاجئ بي. وحينما حاولتُ السؤال عنه بالإشارة فهمتُ بأنه نُقل إلى الـ (بيمارستان).

السبت

الساعة العاشرة صباحاً. شاب ملتحٍ يرتدي عمامة بيضاء يجلس خلف مكتب متواضع وبيده سبحة سوداء طويلة. دخلتُ بشيء من الوجل والارتباك. نهض الشيخ وسار نحو الباب وهو يمد يده لمصافحتي.

أنا: السلام عليكم

هو: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته

قادني من يدي بود ثم أجلسني على كنبة قديمة وعاد هو إلى مكتبه وقد علقت فوق رأسه تماماً صورة كبيرة للإمام الخميني كتبتْ تحتها عبارة بالخط الفارسي «إين قرن قرنِ غلبتْ مستضعفين بر عليه مستكبرين است»

ثم بدأ التحقيق:

هو: ما اسمك؟

قالها بلغة عربية ماطاً الحرف ما قبل الأخير من الكلمة على الطريقة الفارسية.

أنا: حميد بزون مهدي.

قلتُ وانتظرتُ ردة فعله، وحينما لم تبدر منه إشارة خطرَ في ذهني بأنه أول محقق ألتقيه ولم يقهقه ساخراً من اسم أبي.

هو: آأنت سني أم شيعي؟

أنا: شيعي.

هو: هل كنت نظامياً؟

لم أفهم السؤال فأعاده مرة أخرى:

: هل كنت نظامياً؟ أم مدنياً؟

أنا: نعم كنت عسكرياً ولكن منذ سنة وأنا هارب من الخدمة العسكرية؟

هو: وهل اشتركت في الحرب؟

أنا: نعم، قضيتُ فيها سنة ثم هربت.

هو: أين؟

أنا: في قاطع عبادان والمحمرة.

امتعضَ فجأة وضيّق عينيه فتجعدتْ جبهته، ومن تحت حاجبيه الكثين وقد غطيا خط نظره، وخزني بتأنيب لا أعرف له سبباً.

هو: تقصد خرمشهر؟

أنا : نعم، نعم.. خرمشهر

نهض بتثاقل وهو يرددُ ببرود:

«خوب.. خوب»

فنهضتُ وقد ظننتُ بأن التحقيق قد انتهى، لكن ظني قد خاب حينما التقطتُ مما قاله للجندي الذي دخل الغرفة كلمة (زندان).

(استغرق وقت التحقيق ساعتين وعشر دقائق، حيث بين كل سؤال وآخر

كان يصمت طويلاً شارد الذهن وهو يمسح لحيته بحركة تفتعلُ الوقار والهيبة وكانت شفتاه تتحركان بتمتمةٍ تدعي الوَرَع).

الأحد

(المشهد نفسه)

هو: هل كنت نظامياً؟ أم مدنياً؟

أنا: نعم، كنت عسكرياً في قاطع آبادان وخرمشهر وبقيتُ سنةً ثم هربتُ من الجبهة وبقيتُ سنةً أخرى مختفياً.

هو: خوب، خوب

(صمت)

هو: هل كنت بعثياً؟

أخبرني صالح ونحن في كردستان وقد كان يبدو واثقاً من كلامه بأن من الأفضل لنا أن نخبر المحقق بأننا كنّا بعثيين حالنا كحال أغلب الشعب العراقي وذلك حفاظاً على أرواحنا وعوائلنا من بطش السلطة الكافرة ونحن الآن نادمان وتائبان وبهذه الطريقة نوصد الباب على المزيد من الأسئلة ولكيلا يتهمونا بالشيوعية، ولكني في تلك اللحظة لم أكن أملك وقاحةَ إلصاق هذه التهمة بنفسي فأجبتُ الشيخ بشيء من الإصرار والزهو:

«لا».

ثم أردفتُ بشيء من التمثيل:

«وربِ الكعبة؟»

هو: لماذا؟

لم أستطع أن أجد إجابة سريعة فكرر السؤال:

: لماذا لم تكن بعثياً؟

أنا : هكذا وجدتُ نفسي.

هو: إذن أنت شيوعي؟

أنا: لا، لم أكن شيوعياً.

هو: من حزب الدعوة؟

أنا : لا.

هو: إنْ لم تكن بعثياً فلابد أن تكون شيوعياً؟

أنا : لم أنتمِ إلى أي حزب سياسي.

هو: لماذا لم تكن شيوعياً؟

أنا : أنا رجل متدين والشيوعيون كما تعرف مولانا كفرة.

نهضَ فنهضتُ. صافحني، وعند باب الغرفة رنّتْ في أذني كلمة (زندان).

في الطريق إلى غرفة السجن سمعتُ صوتاً لا أعرف مصدره:

الصوت: هكذا إذن ودونما جلدة أو صفعة تبرأتَ من ماضيك!

أنا (بوجه الصوت): كُلْ خرا!

الاثنين

(المشهد يتكرر)

هو: قلت بالأمس بأنك متدين؟

أنا : نعم.

وبعد لحظة صمت أضفتُ:

«الحمد لله».

هو: اقرأ سورة الفاتحة!

نهضتُ من الكنبة ووقفتُ قبالة مكتبه، أطبقتُ ذراعيّ على جانبيّ بوضع الاستعداد أو كتلميذ يبالغ بالتهذيب.

أنا: (على نَفَسٍ واحد)

بسماللهالرحمنالرحيمالحمد للهربالعالمينالرحمنالرحيمالكيومالدينإياكنعبدوإيا كنستعينإهدناالصراطالمستقيمصراطالذينأنعمتعليهمغيرالمغضوبعليهموالضاااااااليييييييييييييين.

هو: خوب، خَيلي خوب.

أشار إلي بالجلوس مبتسماً ثم غرق بصمته البارد الطويل ممسداً شعر لحيته بينما أنا وضعتُ رأسي بين كفيّ وأطرقتُ إلى الأرض.

هو: هل أنت شيعي؟

أنا: نعم.

هو: عدّد الأئمةَ المعصومين!

أنا: (نهضتُ من الكنبة ووقفتُ قبالةَ مكتبه مطرقاً بخشوع وتعب).

الأئمة المعصومون عليهم السلام هم:

(توقفتُ قليلاً كي أسترد أنفاسي ثم انطلقت بصوتٍ متكسر)

عليبنأبيطالبالحسنابنعلي الحسينبنعليعليابنالحسين زينالعابدينمحمدالباقرجعف رالصادقموسيالكاظمعليبنمو

سيالرضامحمدالجوادعليالها ديالحسنالعسكريوالحجةعجلاللهفرجه.

نهض من كرسيه واضعاً يده على رأسه وقد نكّسه ثلاث مرات ففعلتُ كما فعل.

هو: خوب، خَيلي خوب.

دخل جندي فأشار إليه بيده بأن يصحبني فسمعتُ كلمة (زندان) دون أن ينطق بها.

تلك الليلة لم استطع النوم بسبب الضجر والقمل الذي كان ينهش جسدي.

الثلاثاء

(المشهد نفسه)

لم يرفع رأسه نحوي، ولم يردّ على سلامي فتوجستُ خيفةً. كان جالساً يحدقُ إلى زاوية بعيدة بنظرات باهتةٍ، شفتاه تتحركان وقد أدخل نصف سبابته في أحد منخريه وبين دقيقة وأخرى يدوّر شيئاً بسبابته وإبهامه ويرميه أمامه مسبلاً جفنيه، ثم يرفع عمامته قليلاً عن جبهته ويحكّ شعر ناصيته.

هو: اقرأ سورة الكرسي!

أنا: (كالعادة)

بسمالـلـهالرحمنالرحيمالرحم نالرحيمالـلـهلاإلـهإلاهوالح يالقيوملاتأخذهسنةولانومل همافيالسماواتومافيالأرضم نذاالذيشفععندهإلابإذنهيع لممابينأيديهموماخافهمولاي

حيطونبشيءمنعلمهإلابماشاءو سعكرسيهالسماواتوالأرضولا يؤدهحفظهماوهوالعليالعظيم.

هو: (لم ينطق بكلمة مكتفياً بهز رأسه ثم نهض وغادر الغرفة، دقائق ودخل الحارس وساقني إلى الزندان).

تلك الليلة كان الألم ينخر روحي وشعرتُ بالندم لخروجي من العراق، تلك الليلة بكيتُ بصوت عال.

الأربعاء

هو: اقرأ سورة الكرسي

أنا : بسماللهالرحمنالرحيماللهلاإلهإلاهو......

(أوقفني بإشارة من يده ثم غرق بصمته القاتل بزمهريره)

تلك الليلة فكرتُ بالانتحار.

الخميس

هو: اقرأ سورة الكرسي!

أنا: تقصد آية الكرسي؟

هو: (قافزاً من كرسيه ضاحكاً فبدتْ لي أنيابه سوداء وقد استطالت بشكلٍ غريب).

عافرم، خيلي خوب.

أنا: (دونما اهتمام بالتغيير الذي طرأ على مزاجه وبصوت هادئ يكشف بوضوح عن استخفاف وقرف).

بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا...

هو: (أوقفني بإشارة من يده وتطلع إلي بود مفتعل).

بقي سؤال أخير إن أجبتَ عليه فستكون قد اجتزتَ الاختبار بنجاح.

أنا: (صمت ونظرات لا تخلو من الاستخفاف بل ربما الاحتقار).

هو: كم عدد الركعات في صلاة الغائب؟

أنا: (بتأفف واضح ونظرات زائغة).

صلاة الغائب تؤدى وقوفاً أي بدون ركوع أو سجود.

هو: (قافزاً وبنظرات لا تخلو من إحساس بتأنيب ضمير).

خوب، خيلي خوب.

احتضنني بحرارة وسار معي نحو الباب مودعاً هازاً يدي بشدة وهو يرحب بي في جمهورية الإسلام متمنياً لي إقامة سعيدة في دار الإسلام.

سُمح لي بالخروج عصراً إلى مدينة أروميا بصحبة جندي من عرب الأهواز. كانت المدينة كما بدتْ لي واسعة وجميلة لكن الثلج المتراكم في الشوارع غطى الأرصفة بالوحل، والناس فيها بوجوههم الكئيبة الجامدة يتحركون برعونةٍ واضحة. شعرتُ بالغربة والحنين إلى بيتنا. حاول الجندي أن يعرض أمامي كرمه العربي بود ساذج فتوقفنا مرات عدة عند عربات بيع الشاي، ودونما تروٍ أو حذر أدلق علي قربة أحزانه ومعاناته من هؤلاء العجم العنصريين كما كان يسميهم، وكان يردد في بعض الأحيان عبارات وشتائم التقطها من الأعلام العراقي متهماً الحكومة الإيرانية بمفردات لا أعتقد أنه يعيها كالدجل أو العنجهية، واصفاً إياهم بالفرس المجوس. أصغيتُ إليه بخشيةٍ وتوجس حيث أني كنتُ أشعر بأني مازلتُ تحت الاختبار، ولكي أقطع عليه نشوته بالشكوى، ولكي ألجم خوفي اقترحتُ عليه أن يدعني أذهب إلى حمّام عمومي فلم يمانع. كان الحمّام الإيراني

يتكون من غرف صغيرة مستقلة عن بعضها. استأجرتُ غرفة خاصة وانتظرتُ حتى وصلني الدور. شعرتُ بنشوة وأنا أتفرد بنفسي أو بالأحرى بجسدي. هناك ولأول مرة انتبهتُ حينما خلعت لباسي الداخلي أن الجلد ملتصق فيه، وأول مرة منذ أكثر من عشرين يوماً فطنتُ إلى وجود شيء آخر، شيء كنتُ قد نسيته منذ خروجي من البيت في بدء رحلتي فغدا منكمشاً أسودَ كجرذٍ ميت. سكبتُ عليه ماءً ساخناً فاسترخى قليلاً وتحرك فيه عِرقٌ وشعرتُ بأنه كمتعبٍ يستيقظ من سباتٍ ثقيل فرحتُ أسكب عليه ماءً ساخناً وأدلكه بحنو ورقّةٍ وأنظر بتمعنٍ إلى الروح وهي تعود إليه شيئاً فشيئاً حتى استطال كعنقٍ من يتمطى بعد استيقاظ، ثم تمدد بحركةٍ واضحة حتى انتصب نافضاً عنه موته، وتصلبَ نابضاً فشعرتُ بأن الدم قد أوشك أن يتدفق من هامته. لم أجلده فقد كنت رؤوفاً به مشفقاً عليه وكأنه عزيز قومٍ ذلّ وها هو يستعيد شيئاً من عزّته، أو أسيرٌ انعتق للتو وبدأ يتذكر بصعوبة مفردات حريته التي أوشك أن ينسى أبجديتها، وكمَنْ يشرُقُ في لذةٍ برضابِ عطشه اهتز ساعلاً، متقيئاً السائل المتجمد فيه. شعرتُ بنشوة أكبر من المعتاد لكنها تحولت بعد ثوانٍ إلى حرقة ودوار. أحسستُ بأن الهواء قد اختنق في صدري وقد سدّ البخار كلّ منافذ الرؤية والشم. سقطتُ منهاراً على الأرض وكنتُ أسمع دقات قلبي بقوة. بعد لحظات استعدتُ شيئاً من الوعي فسكبتُ على رأسي ماءً بارداً ثم استطعتُ أن أزحف نحو الباب، وبصعوبة تسلقته نحو الفتحة الصغيرة الموجودة في الأعلى. فتحتها قليلاً وأخرجتُ أنفي كي استنشق الهواء من خارج غرفة الحمام.

حينما عدتُ إلى غرفة السجن تركوا لي الباب مفتوحاً وسُمح لي

بالتجول في باحة المعسكر والمكوث في المسجد طويلاً، وفي الليل جاءوا لي بفراش وهو قطعة من الإسفنج قديمة وبطانية نظيفة.

الجمعة مساءً

جاء جندي ليصحبني مخفوراً إلى طهران. كنت أشعر بفرحٍ كبير لانتهاء مرحلة التحقيقات وترحيلي إلى العاصمة ولكن فرحي انكسرَ، فقبل خروجنا من الباب تحدث معي الجندي بكلام لم أفقه منه شيئاً ثم أخرج (الكلبجة)، تطلعتُ إليها بانكسار، وحينما تطلعتُ إلى عيني الجندي بنظرات مذهولة، ارتبكتْ يداه وزاغت عيناه خجلاً لكن سرعان ما تذكر سطوته فعاد يحدق إلي بنظرة تعالٍ تخفي ارتباكاً واضحاً وكأنه أراد أن ينهي هذا التردد فقد شد إليه معصمي بغطرسةٍ وأدخل يدي في إحدى إسوارتي الكلبجة وهو يطلق ضحكة بلهاء. في الطريق إلى كراج النقل التي قطعناها مشياً كان يمشي بخطوات واسعة مما يجعلني أهرول خلفه كي ألحق به. تخيلتني وقد تحولتُ إلى خروف مُساقاً إلى المسلخ. تعثرتُ مرات عدة وكانت نظرات المتطلعين إلي تنخرني. كان المأمور فظّاً حتى أنه لم يفك أسري ونحن في الحافلة التي تسير بسرعة كبيرة، ينظر إلي متلذذاً ويبتسم ابتسامات حمقاء فيكشف عن أسنان صفر منخورة وهو يراني أحك ظهري بمسند الكرسي وأهرش بيدي الأخرى جسدي ورقبتي التي كنتُ أشعر بدبيب القمل وهو يتنزه عليها نازلاً إلى ظهري. لم يعر اهتماماً لنظرات الراكبين المشفقة علي والمؤنبة له، حتى انفجر رجل دين معمم كان يجلس في المقعد المحاذي لي فتحدث معه ثم سألني بعربية سليمة إن كنت أسيراً وحينما أجبته بأني لاجئ رفض أن يشترك في حرب ظالمة ضد الجارة الإسلامية، التفت إلى الجندي المأمور وراح يتحدث

معه بصوت عال التفت على أثره المسافرون وكانت نظراتهم تتأرجح ما بين رجل الدين وبيني وارتفع لغط بينهم حتى شعرت بأني أدور في دوامة. اغمضتُ عينيّ كي أوقف الدوار وأتجنب رؤية السهام التي تكسرت نصالها على جسدي، وبعد نقاش طويل بين الشيخ والمأمور أخبرني بأنه اتفق مع المأمور بأن يرفع طوق الكلبجة عن يدي طالما نحن في السيارة على أن يعيده حينما نتوقف للاستراحة والعشاء في المدن التي تقع على الطريق. شكرته على المساعدة لكنه قدم اعتذاره بتهذيب عال عن سلوك الجندي الفظ موصياً إياي بالصبر.

عند الصباح وصلنا طهران. سار المأمور بي حاثاً خطاه إلى جهة مجهولة. اجتزنا متنزهاً كبيراً (بارك شهر الذي سيكون في ما بعد ملاذي في هذه المدينة) وحينما خرجنا من بوابته الجنوبية الكبيرة صرنا في مواجهة الباب الرئيس لوزارة كشور (وزارة الداخلية)، هناك سلّمني إلى شرطي آخر وغادر الوزارة مسرعاً. ست ساعات مرت وأنا أجلس على مصطبة عند باب إحدى الغرف. لم يقترب مني أحد ولا أعرف ماذا يدور سوى أجساد تتحرك أمامي كالأشباح لا يعنيها أمري بشيء. عند الساعة الثانية ظهراً وقد بدأ الموظفون بالمغادرة جاءني شخص ودون أن يتفوه بكلمة أشار إلي برأسه أن أتبعه فسرتُ خلفه بحركة غريزية. صعدنا سيارة صغيرة سارت بنا ما يقارب نصف ساعة قبل أن تدخل إلى منتزه كبير جداً كتبت على بابه لوحة كبيرة (بارك إرم). هناك عرفت بأن الرحلة قد انتهتْ حيث التقيتُ مجموعة من اللاجئين العراقيين الذي وصلوا قبل بضعة أيام. مكثت شهراً ثم نقلت أنا ومجموعة من اللاجئين إلى مجمع آخر

(أوردوكاه) في مدينة كرج التي تقع شمالي طهران على بعد مسافة تقطعها السيارة بنصف ساعة.

شهران مرا على وجودي في أوردوكاه كرج، وفي يوم كنت أذرع الممر الفاصل بين القاعة والمرافق الصحية حينما رأيتُ صالح محمد شيروان وقد انتصب أمامي. ودونما سؤال عرفتُ ما حل به فقد كان يتكئ على عصا وقدمه ملفوفة بالضماد ثم علمتُ بأنهم قد بتروا نصف قدمه اليمنى.

وعلى الرغم من أنه لم يصبح صديقي إلا أنه جاءني مرة ليسألني إن كنت راغباً في مصاحبته للهروب من إيران مشياً عبر مدينة زاهدان الحدودية للوصول إلى باكستان ومنها ستتكفل منظمة الصليب الأحمر الدولية بتسفيرنا إلى إحدى الدول الأوربية. ارتسمتْ أمامي مفازة الثلج التي قطعناها معاً بأعجوبة قبل وصولنا إلى أول مدينة إيرانية والتي فقد فيها صالح قدمه فظننته مازحاً في بداية الأمر، لكن تأكد لي بأنه قد حسم أمره حتى لو أدى ذلك أن يفقد قدمه الأخرى.

بعد ثلاث سنوات التقيته مرة أخرى في الدنمارك التي وصلها قبل سنتين.

«أيّ وطنٍ هذا!»

«نعم يا صالح الأعرج، أيّ وطن هذا! الخروج منه مجازفة، الدخول إليه مجازفة، العيش فيه مجازفة، البعد عنه مجازفة...»

قلتُ وربتُّ على كتف صالح الذي التفتَ إلي مستغرباً حيث أنه لم يكن يعرف بأني في لحظات عدتُ عشرين عاماً إلى الوراء مستعيداً سيرة تركت آثارها المؤلمة على أرواحنا.

الفصل الرابع

توقفتِ الحركةُ وتسمّرتِ الأنظار على المشهد. هربَ الأطفالُ من الأزقّة. وقف الباعة على دكّات محلاتهم وهم يرقبون مشهد القافلة برجالها المتعبين ونسائها المفزوعات مثل سبايا يجرجرن في الأسر، بينما تكدست النساء في النوافذ الطينية أو خلف الأبواب المواربة. عمّ الصمتُ القرية، رسائل صمتٍ مستفَزّ تتناقلها العيون وهي تشير إلى المشهد، خيبة أخرى تستبد بنا فالخرائبُ التي بدتْ لنا وحسبناها بناء المخفر الحدودي لم تكن سوى قرية صحراوية منعزلة وربما مضارب بدو ملّوا التنقل فأقاموا ببناء طيني، يتفيأون بظلال الجدران ويعدّون أيامهم على خرز مسابحهم مدّعين الورع لكن نظراتهم القلقة توحي بأن الخوف البدوي المنغرز فيهم لم يزل قلقاً يأبى التوطن، فما أن رأونا ونحن ندخل القرية حتى تلمّسَ كل منهم خنجرَ توجسهِ متحفزاً لطعن الهواء. كانت مشاعرنا تخفي خليطاً من الخوف والفرح بالوصول إلى واحة يمكن لنا أن نستريح فيها قليلاً ونشتري متاعاً للمسافة القادمة والتي بدتْ كأنها بلا نهاية، وربما استطعنا أن نستجير بنخوةٍ سمعنا عنها الكثير لمساعدتنا على الوصول إلى الحدود باستئجار ناقلة أو على الأقل بإرشادنا إلى أقصر الطرق للوصول إلى المخفر الحدودي، لكن يبدو أن لهم قراراً مسبقاً ضدنا، فقد بدا الامتعاضُ على وجوههم من رؤية وجوهنا التي تدلّ على هويتنا التي لم

يبق منها إلا ما ألصقوه بنا رغماً عنا، فهي لم تعد تحمل سوى صور شخصية وأسماء حملناها دونما حق اختيارها. وبرغم ذلك كنا محافظين عليها، أوفياءَ لهذا اللاخيار، صقلنا صورنا الملصقة عليها أكثر من اهتمامنا بوجوهنا الحقيقية، نحدق إليها فنرى أثر السنين وما تركته لنا من تجاعيد في الوجه والروح، وحملنا عبء الحفاظ عليها أكثر من رغباتنا وأحلامنا، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن كافياً لهم، لقد أرادوا منا أن لا نحمل هويّات بقائنا بل علينا أن نحمل وثائق نفينا أو فنائنا، أرادوا أن يجعلوا منّا طيناً اصطناعياً يعيدون تشكيلنا وفخرنا في أفرانهم متى شاءوا وعلى الهيئة التي يرغبون، ينصبون سرادقاً ويحمّصون أحلامنا على نار أوهامهم، يوقدون نارهم في غياب الذئب وحين تحاصرهم نيرانهم لم تجد من بينهم مَنْ يمتلك عزّةَ عقرب. من فَرْطِ خرائبنا يبنون بأوهامهم زقّورات يتغنون بجمالها ومجد ماضيهم التليد، ثم يغيرون عليها ليعيدوا دورة الخراب. حملوا أنطاعهم معهم أينما رحلوا للرؤوس التي سيقطعونها أو يفترشونها حينما يتسامرون، ويصغون إلى الصوت القادم من ماضيهم يردده مغنٍ يجيد دوزنة العواء «يُبَهْ يا يُبَهْ يا يُبَهْ يا يُبَهْ أوووووووو»، وقد أدمن الكذب واجتراح البطولات الخائبة فيطربون ويعوون ويتألمون في آن واحد، أرادوا لنا أن نكون فرساناً ليتغنوا بوحشيةِ سيوفنا وقدسية دمائنا وهي تحنّي سروج أفراسنا المطهمة، أرادونا كيسَ مصل مشنوقاً على سرير أحلامهم المريضة، أو كيس دم، الدم، الدم.. الدم.. الدم.. حتى أصبحنا فقراء نقف طوابير أمام أبواب مستشفيات العالم نبيع دماءنا ليشفوا من فقر دمائهم ونذوي نحن.

«سرْ أيها الخروف المنذور إلى إمام الحقد الجائع ليوفوا بالنذر لعلهم

«رون من تأنيب ضمائرهم إن صحت ذات لحظةٍ.. سِرْ أيها الخروف إلى المسلخ طائعاً! لا تتمهلْ! لا تثغُ! لا تحتجْ! ولِمَ تحتجّ؟ ما نفع الحرية وأنت ذاهب للذبح، عجّلْ! فالسادة جائعون. أجلْ هكذا أيها الخروف يا ذا القرنين الشامخين لا تجرحْ بهما يداً تطعمك وتقودك قوداً جميلاً. كنْ حملاً وديعاً! مدّ عنقك الرهيفة إلى يد الجزار الحانية! قبّلها! كنْ مهذباً وأنت تلامس يد الجزار! ما أنبلكَ وأنت تيمّمُ وجهك صوب القِبلة الطاهرة، قِبلة آبائنا وأجدادنا. ما ألذ لحمك مشوياً على سفّود الشرف والكرامة والرجولة والنخوة».

«أنسيتَ النخوة؟»

«والشهامة؟»

«والشرف؟»

«والرجولة؟»

«عقال أبيك؟»

«فوطة أمك؟»

«شرف أختك وابنة عمك؟»

«أجلْ.. ابنة عمك، إنها بانتظارك تأتيها وخنجرك يقطرُ من دم الأعداء قبل أن يقطرَ من بكارة عذريتها».

«أحسنتَ، ها أنتَ الآن وقد أصبحت فارساً شهماً حفظتَ ماء وجه الأمة وكرامتها المهددة، وأورثتَ أحفادكَ ـ الذين لم تنجبهم، بل لم يكن لديك الوقت والرجولة لإنجابهم ـ أمجاداً سيخلدها التأريخ».

«أنسيتَ التأريخ؟»

«أصغِ إلى صوت التأريخ؟»

«اسمع هلاهل أمك يا...!»

«يا هذا».

«هزيتْ ولوليتْ الهذا»

«ها.. ها.. ها أخوتي ها..»

«انظروا، ما أجمله شهيداً!»

«دمهُ مسكٌ، تفوح منه روائح الجنة».

«لا تكفنوه! فالشهيد لا يُكفّن».

«بل لا تدفنوه! لتحمل الشواهين جسده إلى الذرى».

«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون».

«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية. »

«غير المغضوب عليهم ولا الضاااااليييييين».

«وحدك ملكت الروح يا بن العشيره

أكثر بعد ما اقول يا سلوة العين

قالوها بالأمثال كلمن ضميره

يا عيني كلمن ضميره»

«طرررررررررر»

أغلقت الأبواب. وهمّ الباعةُ بإغلاق محلاتهم لولا شيطانهم المتربص بهم والذي يعرف دناءةَ أرواحهم وضعفها. في البدء كانت وجوههم مكفهرة لا يقطعها السيف كما يقال، لكنها استرختْ شيئاً فشيئاً حينما رأت شيطانها الأخضر يخرج برأسه من جيوبنا. انطلقت من أفواههم كلمات ترحيب خجولة، متواطئة، تخلّتْ عن خجلها رويداً رويداً لترتسم على وجوههم ابتسامة المُرابي تعلن عن كرمها الحاتمي بلغة تدّعي التهذيب، برعوا في انتقاء مفردات التواطؤ بل الخنوع. انتشرنا في سوق القرية، كلّ يبحث عن حاجته ومتاعه على أمل أن نلتقي في جامع القرية بعد الانتهاء من التبضع. نصّبَ أبو عبد الصمد نفسه قائداً مُدلقاً علينا بلغة الوعظ والإرشاد أوامره التي تقبلناها بطاعةٍ تستيقظ فينا كلما توهمنا ضباباً قادماً إلينا، وقد كنّا بحاجةٍ إلى مَنْ ينصّب نفسه قائداً أو ممثلاً عنا كي نحافظ على خط سير القطيع، فالذئب يفترس النعجة المتخلفة. انشغال الرفاق بالتسوق وتفرقهم أتاح لي الفرصة أن أبحث عن المرأة التي مازلتُ أجهل اسمها، ودونما صعوبة استطعتُ معرفتها من بين النسوة فهي الوحيدة التي كانت ترتدي بنطالَ الجينز وقميصاً بكمّ قصير، فتحتْ أزراره العليا فظهر بياض ما بين النهدين تزيده إثارةً قطراتُ العرق وهي تسيل برّاقةً من الرقبة إلى وادي العقيق. التقت عيناي بعينيها، كانت هي الأخرى تبحث عني بشوق لا يخفى. أبطأتُ خطاي فلحقتْ بي متشبثة بذراعي مرددة اسمي بطريقة توحي بمعرفة مسبقة.

«ماذا سنشتري؟»

انتبهتُ بشعور المتحفز الذي لا يخلو من خبثٍ إلى صيغة الجمع في الجملة التي نطقتها وحينما حدّقتُ إلى عينيها برغبةٍ ساطعة، أغمضتْ

بصرها بخجل مثير. أحطتُ كتفيها بذراعي فأمالت عنقها نحوي مستسلمة باستكانة وضعف، متشبثةً بخصري كيلا أفلت منها. سرنا ببطء، ولكن حينما انتبهنا إلى عيون نساء القرية ورجالها الذين أحاطوا بنا وهي مستنكرة المشهد انفصلتْ عني بخجل حاثّةً خطاها للّحاق بكردوس النسوة المحجبات بعد أن همست لي بأن نكمل سيرنا معاً بعد أن نخرج من القرية.

في المقهى الطيني تجمّع بعض الرفاق وكل منهم يضع حقيبة متاعه بين ساقيه. كان مشهدنا يثير الريبة واضحةً على وجوه المارة الذين يتوقفون قليلاً ويهمّون بقول شيء أو طرح سؤال ما، لكن قبل أن تنفتح أفواههم يعدلون عن رأيهم تاركين القرار لأقدامهم وهي تسحبهم في الطريق مكتفين بإلقاء سلام مقتضب. أبدى بعضنا امتعاضاً من الضجيج الذي تُحدثهُ أغنية بدوية تعوي في جهاز التسجيل فانتبه صاحب المقهى الذي كان مشغولاً بهمّةٍ وفرح وهو يوزع الشاي والقهوة، فنادى على الصبي العامل في المقهى كي يبدل الشريط بشريط آخر، فصدحتْ بعد ثوان أغنية عراقية:

«رديت وجدامي تخط حيرة وندم

رديت وعيوني تخط قبل القلم

رديت لحجاياتنا العايزها بس كلمة صدك

وعيونه الحلمانه بالقداح لو مرة يطك

رديت عالبيبان عالبيبان باب بباب أدك

رديت واش رديت لا موعد ولا كلمة نعم»

تصاعدت الزفرات مع دخان السجائر والنارجيلات بينما استبد الغضب بالبعض مفسرين الأمر على أنه نكاية وتحرش خبيث من صاحب المقهى فتصاعدتْ حدة النقاش حتى طغت الأصوات على صوت الأغنية، ثم تحولت إلى قهقهات حينما اعتلى علي كارثه طاولة متضعضعة وهو يردد مع المغني مشيراً إلينا بسخرية:

«شرّقوا ومغربين رحنا ويه الهوه

ودّعوا لحظات الصبر ما ظل صبر يهل الهوه»

انسلّ أبو عبد الصمد ببطء إلى حيث يقف صاحب المقهى عند السماور الكبير ثم عاد متأبطاً ذراعه فانقاد صاحب المقهى إليه بخوف وريبة حتى خرجا إلى الشارع. سارا بضع خطوات وئيدة ثم توقفا. انحنى أبو عبد الصمد بقامته الطويلة على الرجل الذي أربكته المبادرة فراح يصغي باهتمام إلى أبي عبد الصمد وهو يهمس في أذنه بأمر يبدو أنه على غاية من الجدّ والسرية. دقائق ثم عاد صاحب المقهى منادياً الصبي مساعده مكلفاً إياه بإدارة شؤون المقهى بينما ذهب هو مسرعاً تلوح على وجهه علامات تدل على عقد صفقة أو ما شابه ذلك. سارا مسرعين بضع خطوات ثم توقفا عند منعطف. تلفّتَ صاحب المقهى بنظرات متوجسة ثم انعطفا في الزقاق.

وصلنا عصراً إلى معسكر اللاجئين العراقيين في مدينة كرج الواقعة على بعد خمسين كيلومتراً شمالي طهران وتم توزيعنا على قاعات طويلة تضم صفين متقابلين من أسرّةٍ بطابقين. استقبلتني عند الباب وجوه متعبة، أحاطتْ بي تستفسر نظراتها المنكسرة ببلادةٍ عن القادم الجديد، من أين جاء؟ ومتى؟ وما هي آخر الأخبار؟ عربي؟ كردي؟ شيعي؟ سني؟

شيوعي؟ بارتي؟ يكتي؟ هل عندك جواز سفر؟ أقرباء إيرانيون؟ أصدقاء؟ هل عندك دنانير، تومانات، دولارات؟ سجائر؟ من أي طريق دخلت البلاد؟ هل صادفتَ فلاناً في الطريق؟ أي فلان؟ كيف كان التحقيق معك؟ ماذا قلت لهم؟ بعثي؟ شيوعي؟ حزب الدعوة؟ ماذا تنوي أن تفعل؟ تبقى في إيران؟ هل عندك معارف في حزب الدعوة؟ هل تسافر إلى سوريا، السويد، ألمانيا، الدنمارك، اليمن الديمقراطي؟ أسئلة كانت تخرج من أفواههم كزبدٍ أو رذاذ يتطاير من فم معتوه وينتظرون الإجابة عليها بفضول وإصغاء بليد. شعرتُ بالدوار والخوف من تلك الأسئلة وكأن الذين أمامي قد نسوا الدنيا منذ أن ألقي بهم في هذا الجحر الخانق، وعزلتهم هذي تجعلهم يحسبون القادم الجديد قد جاء من دنيا لم يبق من ملامحها سوى ما يتركه الطيف في ذاكرة المتعب. كان النوم حلماً عزيزاً وخلاصاً من شعورٍ بالخيبة والضياع والخوف من المجهول فتقلص الوطن بل العالم كله في حلمي إلى سرير يضمّ هذا الجسد المتضعضع والذي أصبح وكأنه عالة يغتصب حيزاً في هذا الوجود الضنين بين ذوات تتقاتل في ما بينها كي تحوز على سنتمتر واحدٍ تضيفه إلى مساحة حيزها أو الفراغ الذي تدور فيه. ألقيتُ جسدي متدثراً ببطانيات الهلال الأحمر وقمصلة عسكرية تحمل غبار الحرب وثقوب الشظايا وآثار الطريق، أتدفأ بأنفاسي، متكوراً مثل جنين يرفض مغادرة الرحم ومتشبثاً برأسي كتاجِ ملك مخلوع. استيقظتُ الساعة الثانية عشرة ليلاً. كنتُ أشعر بصداعٍ يكاد يفلق رأسي نصفين وجوع ينهش أحشائي. كان صوت الرياح صفيراً مرعباً يخمش الروح كأنه خارج من نفير إسرافيل ينذر بالحساب. والثلج يهطل بغزارة والقاعة باردة والنوافذ عارية وقد غُطي المكسور منها بورق الصحف أو

قطع من قماش. حاولتُ النوم مرة أخرى فلم أستطعْ، رحتُ أصغي إلى النائمين وهم يتحدثون في كوابيسهم الجاثمة على صدور نخرها رصاص الرعب فراح القيح يتسرب بحريةٍ من ثقوبها محدثاً أنيناً وبوحاً لم يعد يحتمل الكتمان فينفجر في غفلة الوعي. تضاعف قلقي ولم أعد أحتمل هذا النكء في الجراح بمبضع الماضي الصديء. نهضتُ بتثاقلٍ وتوجس وكأني أنهض من قبري مستجيباً للنفير. خرجتُ من القاعة إلى ممر طويل موحش يفصل أربع قاعات طويلة. هبطتُ السلالم نحو الطابق الأرضي. فرأيت الحارس جالساً عند بوابة البناية يلهو بسحب أقسام بندقيته ضجراً. ترددتُ في النزول خوفاً من أن يصدّني بكلام فظّ لم أعد أحتمل المزيد منه، وحينما تجاهلني بلا مبالاة شعرتُ بأمانٍ فتشجعتُ على النزول بتوجس وحيطة وكأني أنزل إلى قاع بئر عميقة. في الطابق الأرضي وفي الجانب الأيمن من الباحة أسفل السلالم لمحتُ ضوءاً خافتاً ينبعث من قبو. خطوت نحوه ببطء. شعرتُ بسكينة وأمان وأنا أدخل المصلى المفروش بالسجاد الفارسي والمضاء بأنوار هادئة. المسجد فارغ إلا من شاب ضخم الجثة، كان جالساً عند المحراب وقد أدار ظهره نحو الباب محركاً رأسه بحركةٍ بندولية منتظمة. خطوتُ ببطء كيلا أوقظه من صمت بُحرانه وجلستُ متكوراً في الركن عند مكتبة صغيرة تضم بعض الكتب القديمة ونسخاً من القرآن وكتباً في اللغة والتفسير. مددتُ ساقيّ وقرّبت مني مدفئة كهربائية صغيرة وهي عبارة عن حَجَرٍ مدوّر صغير محفور عليه أخدود على شكل أفعى يمر به سلك كهربائي نحيف، يشيع الدفء في المكان بفعلِ ساحر. أخذتُ نسخة من القرآن وبدأت أقرأ بصمت:

«ألم ترَ كيفَ فعلَ ربكَ بعادْ، إرمَ ذاتِ العمادْ، التي لم يُخلق مثلها في

البلادْ، وثمود الذين جابوا الصخر بالوادْ، وفرعون ذي الأوتادْ، الذين طغوا في البلادْ، فأكثروا فيها الفسادْ، فصبَّ عليهم ربكَ سوط عذابْ، إن ربكَ لبالمرصادْ»

«ألم ترَ كيفَ فعلتَ بنا؟

أم تُرى

أن صوتَ الضحايا يحرّفه الكاتبون

تعالَ إذن

تعالَ لنبحثَ عن...

عن إلهٍ جديد»

أطبقتُ المصحف بخشوع مغمضاً عيني ولكني عدتُ وفتحته ثانيةً حينما أدارَ الشاب وجهه نحوي مفتعلاً القراءة بصمت. مسحَ وجهه بيديه وتطلع إليّ من فوق زجاج نظارتيه.

«الأخ لاجئ جديد؟»

«نعم».

«عربي؟ أم كردي؟»

«عربي».

قلتها بصوت واطئ وكأني أدخل طقس التحقيق ثانية، وربما شعر الشاب بذلك فابتسم مفتعلاً الود وتدارك الأمر مرحباً بي بلباقة وبلغة سليمةٍ مشدداً على التنوين، سألني:

«من أيةِ محافظةٍ؟»

«من الكوت».

تغيّر شيء من ملامحه وشعرتُ بأن مسحةَ امتعاضٍ أو خيبة أمل قد طفتْ على سطح وجهه فتشاغل بتمسيد لحيته الطويلة، ثم عاد مرحباً بي بلغةٍ تجترح الودّ اجتراحاً ملموساً ليعود إلى الصمت ثانية. تشاغلتُ عنه بالقراءة تارة وتارة أخرى بالتأمل مُسبلاً جفني كيلا تصطدم أنظارنا فنعود إلى لغة التحقيق. فتح عقدة منديلٍ نظيف وأخرج رغيف خبز وحبة طماطة وراح يمضغهما بصمت منكساً رأسه متحاشياً النظر إلي. وبعد أن أكمل طعامه حمدَ الله بصوت عال وكأنه يتحدى بحمده على هذه الوجبة المتواضعة شيطاناً يكمن قريباً منه، ثم نهض خارجاً مودّعاً إياي بهزة كبرياء من رأسه. وقبل أن ينتعل حذاءه عند الباب عاد ثانية متوجهاً إلي فحسبته قد نسي سؤالاً فتهيأت للإجابة بغريزة الأسير:

«أعتقد أنك لا تعلم بوجود جامع ثانٍ في الأوردكاه، يقع في البناية الثانية».

قال ذلك ثم غادر مسرعاً.

لم أعِ ما يرمي إليه بكلامه هذا، ولكني كنتُ أدرك أنه ليس كلاما بريئاً، فوجدتُ في التنقيب عن معناه وكشف قصده فكرةً أو لعبةً وربما متعة أقضي بها الليلة فانتعظ تفكيري ورحتُ أشحذ ما أملك من طاقة سوء الظن التي توارثتها كابن بار عن أهلي. أتاح لي خروجه حرية محاورة نفسي بصوت عالٍ بعيداً عن التلصص والأسئلة، فنهضتُ دون خجل ورحتُ أبحثُ في زوايا بيت الله الكريم لعلّي أعثر على كسرة خبز تركها أحد المصلين، فكانت فرحتي كبيرة حينما وجدتُ في كوة في الجدار صغيرة رغيفاً يابساً وعيدان كرفس ذابلة وأعقاب سجائر في منفضة مليئة بالرماد. التهمتُ الخبز حامداً الرازق الكريم بورع الزاهدين، واخترتُ من

أعقاب السجائر أطولها. قرّبت وجهي من (الهيتر) كي أشعل العقب فلفحتني النار بشواظ اخترقت عيني فأبعدتُ وجهي منهزماً، لكن تلك اللحظة كان شوقي إلى تدخين سيجارة لا يقاوم ودناءة نفسي تدفعني إلى طلب النار من سادن جهنم، فأعدتُ المحاولة ثانية واستطعتُ أن أشعل عقب السيجارة لكن النار التهمتْ هذه المرة نصف لحيتي فلم آسف عليها. دخنتُ بمتعةٍ نادرة. ولكي أتجنب الاقتراب من النار ثانيةً رحت أوْرث عقباً بعقب حتى دخنتها جميعاً ثم عدت إلى التفكير بما قاله الشاب:

«هل أكتشف زيف ورعي؟»

«هل أوحى إليه ربه بأن الجالس أمامه شيطان يبحث عن طريدة صعبة القياد؟»

«وهل أدرك بأني لم ألتجئ إلى بيت الله إلا بحثاً عن الدفء وهرباً من الأرق؟»

لم يكن بهذه الفطنة والفراسة فقد أدركتُ بعد أيام قليلة مغزى كلامه فأشفقتُ على بلادته أكثر مما كرهته.

كان أبو عبد الصمد يقضي نهاره في حركة دائبة كأنه يحسب الدقائق بغريزة تاجر فلا يريد لدقيقة من حياته أن تهدر دونما كسب صفقة يعقدها مع الله. يتعامل مع الرب كمرابٍ، فهو لا يبولُ على يدِ مجروح إنْ لم يتأكد من أن هذا المجروح من المؤمنين العابدين المصلين على الطريقة التي آمن هو بها. يسير مرتاباً على الرغم من ادّعائه الثقة بنفسه وبالقدر المحتوم وحينما يصغي إلى أحدٍ يقف صامتاً وقد أمال رأسه بأقصى طاقةٍ للرقبة على الميلان وعيناه تزوغان كأنهما تتفحصان الجهات الأربع حوله

متوجسةً من شرّ مختبئٍ وراء شجرة أو جدار، وحينما يتحدث مع أحد (مريديه) يقرّب فمه إلى أذن السامع حتى تحسب كل كلمة ينطقها كلمة سرّ لساعة الصفر التي اقتربت، ثم يترك السامع متسمراً في مكانه وينطلق مثل زرافة مطاردة. قد تلتقي به في عدة أماكن في فترة قصيرة، فما أن تتركه في قاعة (سرفراز) يلقي موعظة على بعض اللاجئين الذين يكنّون له احتراماً مبالغاً فيه مطأطئين رؤوسهم مصغين إلى ما يقوله بخوف كأن القيامة أوشكت أن تقوم بأمره، حتى تجده وقد سبقك إلى قاعة (مطهري) أو (بهشتي)، وقد يفاجئك في الممر فيجتازك كسهم. ترف عباءته المعبأة بالهواء كأنها منطاد يوشك على الطيران. وصوت نعله الخشبي يخب على البلاط، ماسكاً بالمصحف بقوة على صدره واليد الأخرى مشغولة بتحريك المسواك داخل فمه بحركةٍ تدل على اضطراب نفسي وقلق مزمن. وعلى الرغم من تعصبه القومي الواضح وكرهه الشديد للفرس والأكراد إلا أن أغلب مريديه كان من الأكراد والتركمان، بل راح البعض منهم يقلده بطريقة كلامه ويلبس الغترة البيضاء والعباءة وبالحديث بلغة عربية فصيحة فكان نطقهم للكلمات العربية يثير السخرية.

تجمع في ساحة الأوردكاه عدد من اللاجئين العراقيين عند خروجهم من المسجد بعد أدائهم لصلاة الجمعة التي كان فيها صوت أبي عبد الصمد متحشرجاً، ملعلعاً، ينذر السوفييت والشيوعيين واليهود والنصارى والكفار والمنحرفين والخوارج والرافضة بعذاب قريب، ومبشراً المؤمنين الصابرين بزمانٍ قادم سينطق فيه الحجر ليقول «يا مسلم، خلفي يهودي تعالَ اقتله» فيرتفع صوت المؤمنين بالتهليل والتكبير. في البدء كانوا بضعة شبّان ملتحين يرتدون الزي الأفغاني ويحملون المصاحف على

صدورهم، ثم سرعان ما ازداد عددهم بشكل لا يخلو من تنظيم وإدارة. سرت همهمات بين اللاجئين. أطلت رؤوس من نوافذ البنايتين بطوابقهما الثلاثة تراقب المشهد. أُطلقت صفارة إنذار فتجمع الحراس مدججين بالسلاح، ثم انتشروا في أرجاء المعسكر ونقاط التفتيش شاهرين أسلحتهم بكل اتجاه. حضر المسؤول المدني في الأوردكاه ومعه رجال من المسجد الثاني فأعلن المتظاهرون عن مطالبهم بتحسين الوضع في المعسكر وزيادة كمية الأكل فانضم إليهم عدد آخر من اللاجئين حاول البعض إقناعهم بالعدول عما ينوون إلا أنهم ازدادوا عناداً، فاصطدم عنادهم بالعناد الفارسي الشهير، راحوا يدورون في أرجاء المعسكر مطلقين شعار الموت للكفار والمنافقين بعلامات إشارة مبهمة الاتجاه. عند المغرب وصلت ثلاث سيارات شرطة صغيرة، نزل من إحداها شيخ بعمامة بيضاء يتبعه ضابط برتبة عميد. طلبا من المتظاهرين ترشيح ممثل عنهم، عندها أدركنا بأن أبا عبد الصمد لم يكن من بين المحتجين بل لم نرَ له أثراً في المعسكر. بعد مباحثات استغرقت ربع ساعة عاد كاك حسن ليعلن عن فشل المباحثات فارتفعت أصواتهم بالتكبير والصلاة على النبي وعلى صحبِهِ أجمعين وكأنهم أرادوا بذلك أن يعلنوا للسلطات الإيرانية هويتهم وتحديهم الواضح فأثار ذلك جماعة المسجد الثاني الذين ارتفعت أصوات بعضهم بالصلاة على النبي وعلى آله الطاهرين المعصومين وكادت تنشب معركة باليدين والعصي التي أخفاها بعضهم تحت ملابسه لولا تدخل بعض الحرس الإيراني ووقوفهم عند خط التماس. أحاطت بهم قوات الحرس العسكري وبعض من قوات الباسداران الذين لم يعرف أحد منا كيف حضروا إلى المكان مشكلين محيط دائرة راحت تضيق شيئاً فشيئاً،

واختلطت أصوات سحب الأقسام مع الصراخ والتكبير فارتسم الرعب على وجوه اللاجئين، وقد انسحبَ البعض ممن شارك في البداية مع المتظاهرين بحسن نية بعد أن اكتشفوا أن المطالب التي عرضوها أول مرة لم تكن إلا حجة لتجميع أكبر عدد من اللاجئين، كما وأن عناد المسؤولين الإيرانيين وعجرفتهم لم تترك مجالاً للشك على أنهم قادمون على اتخاذ قرار خطير، ولم يكن احتمال إصدار أمر للحراس المتحفزين على فتح النار على صدور المتظاهرين أمراً بعيد الوقوع. وصلت سيارة شرطة كبيرة فأجبر الحراسُ المتظاهرين على الوقوف بنسقٍ منتظم. اعترض شخصان فانهالت عليهما الهراوات وأخامص البنادق فهجم رفاقهما على الحراس واستطاعوا تخليصهما منسحبين إلى مركز الدائرة. بعد فترة صمت تتخللها هتافات وتكبير، تقدم كاك حسن ووقف في أول النسق فتبعه الآخرون، ثم سيقوا إلى السيارة التي انطلقت بهم إلى جهة مجهولة.

بعد مغادرة سيارات الشرطة وانفضاض الحشد بساعتين اقتحمت المعسكر مرة أخرى سيارتا شرطة فهرع اللاجئون خارج القاعات وفي النوافذ لمعرفة الأمر. توقفت السيارتان في منتصف ساحة المعسكر ثم خرج من أحدهما أبو عبد الصمد، فعرفنا بأن سبب الاحتجاج كان اعتقاله بعد إلقائه لخطبة الجمعة والتي تعرض فيها إلى المذهب الشيعي بسوء.

عاد أبو عبد الصمد إلى الأوردكاه ولكنه لم يعد كما كان، بل أصبح كتوماً ومنطوياً على نفسه، يقضي معظم وقته في المسجد ولا يفارقه إلا في الساعات الأخيرة من الليل. ثم فجأة اختفى، وقيل إنه تسلل هارباً إلى أفغانستان.

وصل أبو عبد الصمد بصحبة صاحب المقهى. كان فرح غريب يطفح من عينيه وابتسامة نادرة ترتسم على وجهه الذي ألفناه عبوساً ولا يقطعه السيف. استقبله في المقهى رجاله الذين نهضوا إليه وعلى وجوههم سؤال يتململ وقلق واضح. انزوى بهم بعيداً عن واجهة المقهى وراحوا يتهامسون بشكل يثير الريبة، حتى ارتفع صوت أذان الظهر فانفرطت حلقة المتهامسين وساروا باتجاه المسجد بينما عاد أبو عبد الصمد إلى المقهى، وبزهو قائد في الجيش يستعد إلى خوض معركة حاسمة وقف رافعاً يده للفت الانتباه إليه ثم أصدر أمره إلينا بالتجمع في مسجد القرية قبل الاستعداد للسير نحو الحدود بعد صلاة العصر مباشرة. ترك المقهى بثقةِ مَنْ اعتاد على إصدار الأوامر وحيازة الطاعة. نهض الجالسون في المقهى متجهين نحو المسجد وكان من بينهم مَنْ كنتُ أعرف بأن لا علاقة له بالمسجد أو الصلاة. لم يبق في المقهى إلا أنا وعلي كارثه الذي كان يحاول أن يكتم ضحكته الساخرة وهو يشير إلى «الخراف التي تتبع الراعي بغريزتها الحيوانية»، ثم التفتَ إلي:

«تمّت الصفقة».

قال هامساً وهو يشير بعينه اليسرى إلى الجهة التي سار بها أبو عبد الصمد ورجاله.

«أية صفقة!؟»

قلتُ مصطنعاً التجاهل واللامبالاة ومتحاشياً الإطالة في الحديث مع علي الذي لم أكن أتوقع بأنه كان يرقب المشهد بعيني صقر متحفز، وقد كنتُ أكثر منه فضولاً لمعرفة نوع الصفقة التي عقدها أبو عبد الصمد مع صاحب المقهى. أدرك علي تجاهلي له فتقاطعت عيناه وانعقد حاجباه وقد

طفحتْ على وجهه علامات الغضب و (الكورثة)، ولأنه يعرف بأني أكنّ له مودة خاصة فهو في كل مرة يتصاعد فيه غضبه لا يتجاوز سقف القطيعة، لذا فإنه تطلع إليّ بغضب ثم نهض من الكنبة وسار مبتعداً عن المقهى متأففاً وهو يردد بسخرية:

«هه.. مثقف.. طيزي»

طلبتُ من صبي المقهى أن يأتيني بكأسٍ شاي أخرى. رحت أرتشفها مستمتعاً بوحدتي التي اشتقت إليها. الأفكار تتصادم في رأسي محدثةً دوياً يصم أذنيّ. حاولتُ سلّ فكرةٍ واحدة والتركيز عليها فلم استطع فهي متشابكة أو كما يسميها علي كارثه (خبصانات)، الوطن، المنفى، الذكريات، الرفاق، الأحلام التي تفقس أوهاماً، الأوهام التي تستبد بالنفس حتى تغدو حقيقة، الحقيقة التي لا تستطيع إثبات وجودها إلا بطعم مرارتها، المرأة اللغز الذي اخترق جدار عزلتي، وغربتي التي لم تجد سلوى لها إلا بي فأدمنتني كما أدمنتها، ووجوه الأحبة التي أعلم أني لن ألتقيها ثانية لكنها ترحل معي أينما رحلتُ وتقيم حيث أقيم. صراخ في ذاكرتي، صراخ مكتوم في حنجرتي، أنين مئات الجرحى يتوسلون بي أن أحملهم وعيونهم تسملها الشفقة التي لا أملك غيرها، عيون عشرات القتلى جاحظة تحدق إلي كأنها تتوسل أن أعيدها إلى الحياة، ومشهد أمي وهي ترمي خلفي طاسة الماء متمتمة بالدعاء حاسبةً أنني سأعود إليها قريباً وها هي اثنتان وعشرون سنة قد مضت لأعود وأدلق نهر دموعٍ على قبرها، والطريق المجهول إلى أفق لا يستقر.....

«يا أبي أنا لست إسماعيل، أنا محض خروف أعجف».

أخرجتُ من حقيبتي اليدوية دفتري الصغير ورحت أحاول أن أكمل

القصيدة التي بدأت كتابتها قبل انطلاق المسيرة وقد كنت أنوي إلقاءها في حضرة صاحبة حانة (مفترق الطرق):

«دارت بنا الأرضُ
لم تتركْ لنا أثراً
كي نستعيدَ خطىً
كنّا أضعناها

..................»

توقفتُ عن الكتابة، فقد أخرج المللُ رأسه من جيب روحي مُدلقاً لسانه الأصفر، ساخراً من بَطَري. حامت الكآبة بظلالها السوداء أمام عيني، وتشخصت أمامي الـ (سدى) والـ (لا جدوى) وكل بنات العبث، فشطبتُ ما كتبت ورحتُ أرقب بفضول وضجر الشارع الخالي من المارة إلا من بعض كلاب سائبة مدت ألسنتها لاهثة تبحث عن جدار تستظل تحته وقطط جائعة تبحث في الرمل عن بقايا طعام، وحينما لم تجد ترفع رأسها نحوي بعينين دامعتين وتطلق مواءً يخرمشُ روحي.

لاح في نهاية الشارع عبد السادة خضير قادماً بقامته الطويلة وكتفيه المرتفعتين بصحبة جلال مختار، وكانا قد اختفيا منذ وصولنا إلى القرية لأمر أجهله. اقتربا. كانت تلوح عليهما علامات فرح لا يخلو من قلق كأنهما اتخذا غير واثقين قراراً مهماً. جلسا إلى جانبي وهما يلهثان من شدة الحر. عبّ عبد السادة كأسين من الماء والتفتَ إلي. كنتُ ألمح في عينيه رغبة البوح بسرّ:

«غداً صباحاً ستنطلق حافلة من القرية باتجاه العاصمة».

قال متردداً وكأنه يشعر بشيء من الانتكاس والخجل فانتبهتُ إليه حاثاً إياه على مواصلة الكلام فأضاف جلال مختار:

«ومنها سنحجز بالطائرة للعودة إلى السويد والدنمارك».

«وهل فكرتما جيدا بقراركما هذا؟»

هبّ عبد السادة واقفاً كأن سؤالي قد استفزّه فاتسعتْ فتحتا منخريه وبغضب خاطبني:

«وهل الأمر بحاجة إلى تفكير؟»

«نعم».

قلتُ ثم أضفت بشيء من اللوم:

«لم يبقَ أمامنا للوصول إلى الوطن سوى ليلة أو ربما بضع ساعات، فلماذا نفد صبركما؟»

ثم أضفتُ:

«بإمكانكما اعتبار الأمر مجرد زيارة وإنْ لم يرقَ لكما الوضع فبإمكانكما عندها العودة وربما سأكون معكما».

«المسألة بالنسبة لي لا تتعلق بالوقت أو الوصول إنما أنني متيقن بأن إيثاكا لم تعد إيثاكا وأن الوصول إليها خيبة أمل تضاف إلى سجل خيباتنا الطويل».

قال جلال مختار وكأنه يحاول أن يجد تبريراً لإقناعي، ثم أضاف:

«لم يكن الوطن بالنسبة لي يوماً أرضاً أو ناساً بل فكرة. وها أنا أعتبر أن هذه الفكرة قد استنفدتْ مدلولها.. ولكيلا تموت فأنا سأحاول إعادة تركيب عناصرها في الروح لتبقى حيةً، تتنفس وتنمو حسب مشيئتي».

أدركتُ بأنهما قد حسما أمرهما، وما هذهِ الأعذار المفتعلة والتي لا تقنع أحداً سوى محاولة يائسة لإيجاد أي مبرر لإقناع النفس. ولكيلا يتحول حديثنا إلى إصرار متشنج ودفاع عن الرأي لمجرد الدفاع، ولأني أنا نفسي لا أملك المعنى، ولأن المودة التي جمعتني بجلال مختار وعبد السادة أعز إلى نفسي من الوطن نفسه، فقد حاولتُ تغيير الحديث وتلطيفه بمزاحٍ مع عبد السادة، فالتفتّ إليه مخاطباً بابتسامة:

«وأنت، ألا ترغب في العودة إلى ديرة هلك؟»

وأضفتُ بضحكةٍ يعرف براءتها ومغزاها:

«كي تموت على التبن».

فأجاب بخجلٍ:

«وليش أموت عالتبن؟»

«أليست هذي رغبتك التي أكلت رأسي بها؟»

«كانت قبل عشرين عاماً أما الآن....»

صمتَ قليلاً ثم أضافَ:

«كل شيء تغير».

ابتسمتُ له بمودة واضعاً يدي على كتفه فانتفض غاضباً، فقد حسب أني أشفق على سذاجته وأجاريه بطريقة تفكيره. نهض واقفاً قبالتي بتحدٍ ومنخراه يرتجفان وشفتاه الغليظتان غطاهما زبدٌ وازرقاق:

«نعم، كل شيء تغير فإلى أين أرجع.. هه؟ إلى أين أرجع؟ إلى صريفة أهلي في مدينة الثورة أو الجوادر... هه؟ إلى زيارة القبور والذكريات المؤلمة؟ إلى بُرك مياه المجاري وتلال الأزبال... هه؟ ماذا سوف أعمل؟

أعود إلى رعي الجواميس... هه؟ إلى صراخ الصبية خلفي، عبد، أسود، أبو خشم الأفنص...؟»

هدأ قليلاً ثم عاد يتحدث وهو ينظر إلى جهة بعيدة بكلام لا يخلو من السخرية والغمز مني:

«أنا مو شاعر حتى أقول إن الشوارع لا تزال تذكر خطوتي... أو أن أقف على جرف دجله وأقول كل مدينة لا يشطرها نهر أشكّ في نقائها... هه»

التفتَ إليّ فوجدني غارقاً في الضحك من طريقة كلامه وظَرف شعوره، فتوجه إليّ وهو يشير بسبابته نحوي:

«صدقني، لن تسأل الشوارع عن خطواتك».

«.........»

«ولم تحتفظ المرايا بصورتك».

«.........»

«ولن يقف الصمتُ دقيقة صمتٍ على غيابك».

كنتُ أحدق إلى عبد السادة فأرى تغيّر ملامح وجهه بانفعالاتٍ ساخرة غاضبة، وأصغي إلى غمزاته الظريفة التي لا تخلو من مهارة خبث فقد كان يشير بكلامه هذا إلى عبارات ومقولات كنتُ قد قلتها سابقاً، وحينما لم يسمع مني رداً مكتفياً بابتسامة وهزات مكابرة من رأسي توحي باتفاقي معه على ما يقول، تطلع إليّ لاوياً عنقه:

«هه...»

سحقَ بغضب عقب السيجارة بقدمه ورمى جسده الضخم على كنبة المقهى وهو يطلق سيلاً من الشتائم والتجديف مختلطاً بكراتٍ صغيرةٍ من

الزبد. عبّ كأس الماء، والتفت نحوي ولكن قبل أن ينطق بكلمةٍ، بادرتهُ برقةٍ:

«عيوني، عبد الساده، لا تتطنطل عليّ، أعرف كل ذلك وأعطيك كل الحق».

زفرَ عدة زفرات عميقة وأشعل سيجارة، وبعد لحظات صمت التفتَ إلي وراح يتحدث بهدوء أقرب إلى التوسل والشعور بالخجل:

«هل تعلم عندي الآن فيللا كبيرة في ضواحي استوكهولم لا يسكنها إلا نبيل من النبلاء الاسكندنافيين، وعمل محترم، وسيارة فالفو آخر موديل جديدة... جديدة... ما فاسي بيها أحد.. ومونيكا؟ ما شفت مونيكا؟»

صمتَ قليلاً ثم عاد يردد:

«مونيكا، نعم مونيكا، أنت ما شايف مونيكا، تْلِجْ بالشمس».

حينما خرجتُ من دائرة البريد في ميدان (توبخانه) الواقع في منتصف طهران، التقيتُ بعلي الخياط، كان الوقت عصراً فدعاني للمبيت عنده في غرفته التي استأجرها في حي مولوي جنوبي طهران. سرنا في خيابان ناصر خسرو ومنه انعطفنا إلى (كوجه مروي) أو (كوجه عرب) كما يطلق عليه الإيرانيون، وهو زقاق ضيق تتوسطه ساقية للمياه الوسخة والنفايات، يلتقي فيه على مدى ساعات اليوم اللاجئون والمهجّرون العراقيون وقد فتحوا المحلات والمطاعم التي تبيع الطعام العراقي ثم تحول إلى سوق سوداء يلتقي فيها السياسي المطارد والمناضل المتقاعد والمرابي ورجال الشرطة السرية وعملاء يعملون لصالح السفارات الأجنبية والقوادون واللوطيون، فتوزع فيها الصحف الحزبية والمنشورات السياسية بنفس

السرية التي تباع فيها كل الممنوعات الأخرى من جوازات السفر المزورة وتصريف العملات الأجنبية وحتى العرق وأجساد العاهرات والغلمان.

انحرفنا في زقاق أفعواني أضيق يتفرع من كوجه مروي ويتحول إلى أزقة ضيقة متشابكة كأنها أفعى ملتفة على بعضها. كان علي الخياط يسير أمامي بضع خطوات ونحن نخرج من شعيرة لندخل أخرى. أشار إلي أن أقف عند مفترق شبكة من الأزقة. سار بضع خطوات ثم توقف عند نافذة قبو غطتها الأزبال وخيوط العناكب. طرق على خشب النافذة ثلاث طرقات متوجسة وانتظر لحظات حتى خرج رجل نحيف غطى رأسه بكوفيةٍ فلم يظهر من وجهه سوى عينين زائغتين تتقادحان كجمرتين. تلفت يميناً وشمالاً وحينما تأكد من خلو الزقاق سلّم علي كيساً صغيراً وأغلق الباب بقوة.

أغلق علي الخياط باب الغرفة بإحكام وسدّ فتحة التهوية بخرقة وصحف قديمة فاختنق الهواء أو بقايا الهواء حتى أصبحت كأنها غرفة إعدام بالغاز، وحينما سألته متوجساً عن سبب هذا الكتمان أخبرني لكيلا تتسرب رائحة العرق فتكتشف صاحبة الدار الأمر فتطردنا أو تشي بنا إلى منظمة الباسداران فيكون مصيرنا الليلة في السجن أو الجَلد. أخرج كيس النايلون وأدلق منه العرق المغشوش في إجانة صغيرة وكان حريصاً أن لا تسقط منه قطرة وكأنه ماء الحياة.عبَّ كأسه دفعة واحدة منتشياً، وقبل أن يأخذ العرق دورته في الدم راح يغني بصوت مخنوق:

«الردته سويته اشعندك بعد قول

قلبي وجويته اشعندك بعد قول»

وحينما حاولتُ أن أقلده بطريقة الشرب، شعرتُ بأن بلعومي قد احترق

وأن نصلاً نارياً قد اخترق الحجاب الحاجز فضاق نَفَسي وكدتُ أفرغ ما في أمعائي، فامتنعتُ عن مجاراته بالشرب محاولاً التملص من إلحاحه بحجج لم يقتنع بها.

طُرقَ باب الغرفة فجأة فارتبك علي وبسرعة خاطفة أخفى إجانة العرق والكأسين، وحينما تطلع من ثقب الباب زفر بعمق وهو يجدّف ويكيل الشتائم للطارق. التفتَ إليّ قبل أن يفتح الباب مطمئناً:

«أبو علي الطنطل.»

وحينما أظهرت له عدم معرفتي بالاسم أضاف:

«عبد الساده خضير».

أحنى قامته حتى لامستْ رأسه ركبتيه وانزلق إلى الداخل بصعوبة، وحينما توسط الغرفة بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين اللتين رفعهما حتى اختفت رقبته فاستقرتْ على جسده رأس كبيرة بشعر ملفوف ووجه زنجي بأنف مفلطح احتل أكثر من نصف مساحة وجهه وشفتين بنفسجيتين غليظتين، فضحكتُ في سري لتشابه الهيئة واللقب فهو (طنطل) بحق.

رمى جسده على الأرض فأحدث اهتزازاً في الغرفة وانهال التراب من السقف. ودون أن ينتظر أن يقدم له صاحب الغرفة كأساً، تناول كأساً وملأها إلى حوافها وأدلقها في جوفه دفعة واحدة وبطريقة تليق بمقام جسده، متلمظاً بنشوة، نافثاً دخان سيجارته من منخرين كأنهما مدخنتان يخرج الدخان منهما خطين متوازيين يحافظان على توازيهما حتى يرتطما بالأرض. أخرج من جيب بنطاله ورقة مطبوعة وقدمها إلى علي الذي ارتسمت على وجهه علامات حزن وغضب، وحينما استفسرتُ دونما فضول عن محتوى المنشور، أجابني عبد السادة بأسى:

«أسماء شهداء الحزب في معركة بشتاشان».

أخذتُ الورقة من علي ورحتُ أقرأ الأسماء بصمت محايد. توقفتُ عند أحدها. اغمضت عيني محاولاً شحن ذاكرتي. يبدو أنه قد ظهر بوضوح شيء من الحزن على وجهي، وهذا ما جعل أبو علي الطنطل يوجه سؤاله لي:

«هل عرفت أحداً من بين أسماء الشهداء».

«نعم».

قلتُ فجاء صوتي منكسراً. نطّ أبو علي من محله ليجلس جنبي وراح يحدق معي في الورقة، ثم سألني موآسياً:

«منو؟»

«الشهيد علي عبد الكريم النعيمي».

أجبتُ بحزن، واضفتُ:

«كان صديقي وزميلي في معهد التكنولوجيا وكنا معاً في خلية واحدة في الاتحاد العام للطلبة والحزب في منتصف السبعينات».

ودونما شعور مني رحتُ أتحدث عنه حديثاً لا يناسب حالة الحزن:

«كان دونجوان الحزب والمعهد، فقد كان وسيماً جداً وكنا نلقبه...»

وقبل أن أكمل جملتي أكملها هو بثقة:

«أبو عيون الخضر».

اكتشفتُ تلك الليلة بأن عبد السادة أو أبا علي الطنطل يعرف كل شيء عن جميع الشهداء. يعرف أسماءهم الحزبية وأعمارهم وإلى أية محافظة في العراق ينتمون ومتى انتسب كل منهم إلى الحزب، بل يعرف عنهم

أصغر الأشياء وأتفه الأمور، ويعرف بدقةٍ تثير الإعجاب جغرافية كردستان ومواقع الأحزاب وما يُظهر وما يُخفى من شأن العلاقات بين أحزاب المعارضة والتي تتخذ من كردستان ساحة لكفاحها المسلح ضد السلطة. تحدث عن المعارك التي خاضها الحزب وكأنه لم يترك واحدة إلا وقد شارك فيها. ثم تحدث بالتفصيل عن معركة بشتاشان منذ بدء هجوم مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني على مقر الحزب الشيوعي حتى نهاية المعارك وعقد الصفقات. وصفَ المعارك التي دارت على قمة جبل قنديل وكأنه قد عاد منها تواً، تحدث عن الشهداء والأسرى، عن الخيانات والمساومات التي تمت بين قادة الأحزاب المتقاتلة....

بدأ السُكر واضحاً على وجهه فراح يوجه سهام شتائمه إلى كل الجهات ورأسه تهطل بين الحين والآخر فيبذل جهداً برفعها ويحدق إلى فراغ الغرفة بعينين ساهمتين يختفي سوادهما الفاقع في موقيهِ الحمراوين حتى يبدو وكأنه أعمى أو محتضر. رفع سبابته وراح يخاطب مجهولاً أو يهدد أشباحاً تختبئ في الغرفة، ثم ارتفع صوته متكسراً، خارجاً من حنجرة منخورة كأن أوتارها توشك على الانقطاع، محاولاً تثبيت عنقه السائبة على صدره، وراح ينشد بحزنٍ والزبد يتطاير من فمه:

«تـكـضـن وارد يـا ديـرتـي لـحـسـنـج وأمـوتـن عـالـتـبـن
شـوقـي إلـج شـوق الـقـطـا الـتـايـه ومـوعـات الـدهـن»

ثم وضع رأسه بين راحتيه وأجهش ببكاء هيستيري.

عبد السادة خضيّر أو أبو علي الطنطل وكالةُ أنباء متحركة وأرشيف للمنشورات الحزبية. يعرف آخر الأخبار عن جبهات الحرب العراقية الإيرانية وأعداد القتلى والأسرى وأخبار المعارضة العراقية في كردستان أو

في الأهوار الجنوبية، لكنه نادراً ما يخوض في نقاش سياسي، وحينما تشتدّ حدة النقاشات في تجمعات العراقيين ويبدأ الكل بعرض عضلات نضاله وقراءته للواقع السياسي، ينسحب هو بهدوء وتواضع. وعدا لحظات غضبه وعناده القليلة فإن وداعته الطفولية ورقّته لا تتناسب وضخامة جسده. مرات عدة وجدته منزوياً يبكي وحينما أسأله عن سبب بكائه يلقي اللوم على الغربة والسلطة الطاغية وأحزاب المعارضة المتهرئة فأرى العثة تنزل من قمة رأسه حتى قدميه راسمةً خريطة نخْرِها على هذا الجسد الضخم، وأتيقن من صدقه في تواضع أمنيته التي تدفعه لأن يتخلى عن كرامته وإنسانيته ليتحول إلى حصان هرمٍ أو ثورٍ ميت على تبن زريبة أو إصطبل.

قضينا معاً ليلتين في سجن مدينة (طيبات) بعد أن تم تسليمنا إلى حرس الحدود الإيراني من قبل المجاهدين الأفغان الذين اعتقلونا ونحن نحاول اجتياز الحدود الإيرانية هرباً إلى أفغانستان التي كنا نمنّي النفس بالوصول إليها لنغادرها إلى أوربا كما فعل بعض اللاجئين العراقيين قبلنا، ولكنا لم نصل حيث اعتقلتنا مفرزة للمجاهدين الأفغان في المفازة المترامية ما بين مدينة (طيبات) الإيرانية والحدود الأفغانية. اقتادونا إلى الأراضي الأفغانية وقضينا هناك في سجن خرِب ثلاثة أيام وحينما تأكدوا بأننا لم نكن شيوعيين جئنا لندعم نظام كابل، تم تسليمنا إلى مفرزة إيرانية أعادتنا إلى مركز شرطة الحدود في مدينة (طيبات)، ثم تمّ نقلنا إلى سجن آخر في مركز للشرطة في مدينة (مشهد) بانتظار موعد المحاكمة. وصلنا ظهر يوم صيفي من أيام شهر رمضان وكنا جائعين، وحينما طلبنا من شرطي في المركز أن يجلب لنا أي شيء نأكله، اخبرنا بأنهم لا يقدمون الأكل

للمساجين في شهر رمضان إلا في أوقات الفطور، وعند الفطور تجاهلونا وحينما طرقنا باب السجن جاءنا حارس، دفعنا له مبلغاً مضاعفاً كي يشتري لنا من المدينة أية وجبة، أخذ الحارس المبلغ ولم يعد. وفي نهار اليوم التالي حينما فتحوا الباب لنا للذهاب إلى التواليت والمغاسل تحججوا بالصيام. وهكذا مرت ثلاثة أيام لم نذق خلالها أي زاد. رحنا نصرخ من بين القضبان، عندها جاء الحارس هابطاً درجات السلّم ببرودٍ أثار فينا الحنق والحقد. دفعنا له عشرة أضعاف ثمن دجاجة أو كباب. أخذها ولم يعد وحينما رحنا نصرخ ونضرب بقوة الباب بأقدامنا، هرع إلينا أحد الحراس قافزاً السلّم بنطّات عريضة. فتح البابَ بغضب وهو يردد كلمات لم نفهمها. رمى إلينا بقطعتي خبز وقطعة جبن يابس ومتعفن. وقبل أن يغلق الباب مدَّ أبو علي ساقه فحال دون ذلك. حاولَ الحارس أن يغلق الباب إلا أن أبا علي تشبث به ماسكاً إياه من رقبته بيدٍ وبيده الثانية حمله من إحدى ساقيه حتى رفعه إلى أعلى من هامته فسقطت بندقيته. ركلها أبو علي بقدمه فتدحرجت بعيداً ثم رماه بغضبٍ فسقطَ على الأرض واضعاً رأسه بين ذراعيه وهو يصرخ. زحف قليلاً وأقدام أبي علي تركله على مؤخرته. نهض متعثراً ثم هرب تاركاً بندقيته في المكان. وقف أبو علي عند أسفل الدرج رافعاً رأسه إلى الأعلى وبصوت تردد صداه بين الجدران، وبكلماتٍ فارسية قليلة راح يصرخ:

«جي بنير.. جي بنير.. أخلاق نيست.. شرف نيست.. ديانت نيست...»

فهرع حراس المركز إلينا وانهالوا على عبد الساده بالهراوات وأخامص البنادق حتى أغمي عليه فسحلوا جسده الضخم من إحدى ذراعيه إلى الزنزانة ثم أغلقوا الباب وهم يرددون:

«بدر سك... بدر سوخته».

كان الدم يجري من جبهته وفمه مختلطاً بكراتٍ وخيوطٍ من الزبد تخيط شفتيه المتورمتين، وزفير يخرج من أعماقه مثل خوار ثور جريح. جلستُ عند رأسه، ماسحاً الدم عن جبهته وعينيه حتى أفاق. تلمسَ رأسه وذراعيه ثم تحامل على نفسه وجلس سانداً ظهره إلى الحائط. قدمتُ له سطل الماء فعبّ نصفه دفعة واحدة، ساكباً البقية على رأسه ووجهه، تطلع إليّ مبتسماً ثم انفجر بضحك مجلجلٍ حتى دمعتْ عيناه واستلقى على ظهره، وراح يردد:

«تـكـضـن وارد يـا ديـرتـي لـحـسـنـج وأمـوتـن عـالـتـبـن»

وحينما وجدني أتطلع إليه بصمت صرخ بوجهي:

«اش بيك صافن... قولْ أي شي!»

فأجبته ببرود:

«شقول؟»

ثم بضحكة حزينة أضفت:

«لا تنهضمْ ع السبع لو جان علفه تبن

اليوم حتى التبن علف السبع ما يصح»

.... سافر إلى السويد وقد رافقته إلى مطار طهران مودعاً، وحينما أنهى المستلزمات الخاصة بشحن الحقائب وتدقيق الجوازات سار في الممر إلى قاعة الترانزيت، وقبل أن يختفي عن الأنظار التفت إليّ مودعاً وهو يصرخ مبتهجاً:

«تكضن وأرد يا ديرتي....»

وصلتُ الدنمارك وحاولت الاتصال به لكني عرفت من الأصدقاء بأنه منزو في مدينة صغيرة تقع في شمال السويد وقريبة من القطب الشمالي، لكني بقيت أتقصى أخباره وطرائفه فنُقل لي بأنه مرةً غازلَ امرأة سويدية، فقال لها «يا وطني»، سخرتْ منه وتركتهُ إلى آخر أكثر رجولة، ولم يتعظ.. فبينما هو في السرير مع امرأة أخرى وبدلاً من أن يداعب جسدها بلطف ويلحس حلمتيها برقةٍ راح يمصهما بعنفٍ ويبكي. ركلته المرأة وحملتْ ملابسها وهربت.

ثم انقطعتْ أخباره.

نهضتُ من الكنبة فتوقف جلال وعبد السادة عن الحديث، وحينما مددت لهما يدي لتوديعهما تمهلا بمد يديهما وبلهفةٍ باردة سألني جلال:

«ألن تغيّر رأيك وتعود معنا؟»

فأجبتُ بإصرار دون تفكير:

«لا».

ثم أضفتُ بالطريقة نفسها التي اعتدنا أنا وجلال الحديث بها لكوننا شاعرين لا ننظر إلى العالم إلا من زاوية الأدب والثقافة:

«سأكملُ الطريقَ إلى إيثاكا لسبب واحد وهو أني لا أريد أن أفيق في منتصف الحلم حتى لو لم يكن حلماً بل كابوس».

الفصل الخامس

حينما وصلتُ المسجد كان المصلون قد انفضوا بعد صلاة الظهر وانتشروا خفافاً فرحين بعد أن تركوا في بيت الله أوزارهم ودفعوا ضريبة خطاياهم التي يفرغونها خمس مرات يومياً ثم يعودون ينوؤن بها ويفرغون حمولتهم، هكذا..... لمحتُ علي كارثه مقرفصاً عند الباب ورأسه بين يديه مثل شحاذ، شحاذ لا يتسول صدقة بل يبحث عن أجوبة لأسئلةٍ، لم أرَ مثله شخصاً مهموماً بها وبهذا الإلحاح والعناد كطفلٍ يكتشف الوجود حديثاً.
حين رآني قادماً نحو المسجد نهض متجهاً نحوي وهو يصرخ غاضباً:

«وين أنت؟»

توقعتُ أنه سيمطرني بأسئلته الغامضة، وحينما استفسرتُ منه عن سبب سؤاله أجابني بأن مشكلة قد حدثت. ولأني خبرتُ علي واعتدتُ على طريقة كلامه في المبالغة وجعل حتى أصغر الأمور قضية كبيرة خاصة حينما يتعلق الأمر بي، فهو يشعر بنشوة وتشفٍ كلما رآني مصغياً إلى تأنيبه لي أو حينما أعترف له بخطأ ارتكبته فينهال علي بسوط لومه ونصائحه، معلناً بدهشةٍ واستغراب كيف يقع شخص مثلي بمثل هذه الأخطاء، فهو معجب بي على الرغم من أنه يبدي عكس ما يضمر، ويحسبني قادراً على حلّ كل مشاكل العالم بما فيها المسائل الكونية التي

تشغله دائماً. يحاول جاهداً تفنيد ما أقوله لكنه بعد لحظات ينقلب على آرائه مردداً ما أقولهُ حافظاً كل كلمة، حتى بدأتُ أخاف من الحديث معه فهو يقتنص تقلباتي وتناقض آرائي ويدخرها إلى لحظةٍ يتشهى فيها الشجار معي، عندئذٍ ينشرها دفعة واحدة أمامي لكي تكون دليلاً ضدي ومبرراً للتمادي بالسخرية:

«أنت وين يا أخي؟ لماذا تتهرب من مسئوليتك؟»

وحينما سألته عن الأمر، أجابني:

«ماريانا».

«مَنْ ماريانا؟»

سألتُ باستغراب فبدا الغيظ طافحاً في عينيه. مسك ياقة قميصي غارزاً أصابعه الطويلة في عنقي وهو يردد:

«تسوّي روحك ما تعرف ماريانا؟»

«صدقني لا أعرف مَنْ هي ماريانا».

ورحت أقسم له فتوقف بذهول معتذراً، ثم أجابني:

«حبيبتك. أليست هي حبيبتك؟»

فأدركتُ ما يقصد فسألته بلا مبالاة:

«اش بيها؟»

فأخبرني بأن امرأةً وشتْ بها عند أبي عبد الصمد فمنعها من دخول المسجد ورفض أن تكون ضمن قافلتنا. وحينما سألته عن السبب قال لي بأنهم كانوا يعتقدون بأنها مسيحية. وجدتُ في ذلك فرصة لمعرفة المزيد عن هذه المرأة اللغز:

«وهي... أليست مسيحية؟»

«كانت تقسم بأغلظ الأيمان بأنها مسلمة».

أجاب علي ثم أضاف:

«يبدو أنها قد غيّرتْ اسمها في الوثائق الدنماركية».

«وكيف انتهى الأمر؟»

«أقتنع أبو عبد الصمد أخيراً بإسلامها بعد أن قرأت سوراً طويلة من القرآن، فأجبرها على ارتداء الحجاب».

ولكيلا يضيع فرصة كهذي في إشباع رغبته بتأنيبي قال:

«كانت تصرخ باسمكَ لتحميها منهم».

انتظر ردة فعلي على حماسته الفائضة بالكلام وحينما لم يظهر عليّ أي تأثير لتأنيبه أضاف بقسوة:

«مسكينة، كانت تتصور أنت واحد أخو أخته، ما تدري بيك أنت واحد أناني».

لم أجبه على غضبه بسوى ابتسامة يعرف مغزاها، أثاره صمتي فراح يردد:

«عاق.. وغد..»

ولأني أعرف علي كارثه و(فطارة قلبه) وأنه لا يعرف ماذا تعني هاتان الكلمتان فضحكتُ من غضبه وأنا أربت على كتفه فازداد غضبه. أزاح كفي عن كتفه بغيظ وتركني ودخل المسجد وهو يردد:

«هه.. مثقف.. طيزي».

دخلتُ المسجد فاستقبلتني بشوق وعتب عينان دامعتان تبرقان خلل

برقع أسود بين ركام النسوة المتكدسات على بعضهن. كانت النسوة قد اتخذن ركناً منزوياً من أركان المسجد بينما احتل الرجال المصلى وظلال الجدران وقد ارتفع شخير بعضهم. درتُ بين أجساد النائمين أبحث عن مكان أحشر فيه جسدي لموت مؤقت. كان جسدي متعباً ويشتاق إلى غفوة رحيمة لا تطغى بكوابيسها ولا تستبد بهذا الجسد الواهن، المنخور بشظايا الماضي والمثقل بأصفاد الرحيل، غفوة تهدهد هذا الجسد بترنيمة أمٍّ أو قبلة عاشقة. لم أجد في صحن المسجد ظلاً شاغراً لإقامةٍ مؤقتة لهذا الجسد سوى ظلّ شحيح لشجيرة ورد عارية قرب ساقية صغيرة يجري فيها قُراحاً ماء الوضوء. أودعت جسدي عندها متكئاً على أغصانها اليابسة فهاجمتني بأشواكها وذكرياتٌ منسية لعطر يستفيق في روح التائهين في تيه العالم، الباحثين عن الحقيقة في مفازة المجهول. لم تمضِ سوى بضع دقائق حتى اكتمل انحسار الظل عن شجيرة الورد، وكما في كل مرةٍ لم تكن للأعزل وسيلة للدفاع عن نفسه غير النجاة بالهزيمة، فنهضتُ مستسلماً أبحث عن مكان آخر تاركاً لشجيرة الورد ذكرى مرورٍ عابر لاسبيل، أغراه ضوعٌ عابقٌ لوردة آيلة للذبول وضوءٌ شحيحٌ لانكسارِ فجرِ مريضٍ على مرايا الأفق المتحرك، وعزاءً بالرسوخ في أرض آمنةٍ وسماء رحبةٍ تحتضن الكائنات الضائعة في صحارى الغيب، وإن لم تجب دعوة السائل والمضطر إلا أنها تمطره بطلّ أسئلة الروح والوجود.

فجأة وقع نظري على درج خربٍ قرب حاوية الأزبال. اقتربتُ منه بفضولٍ متوجسٍ وبسريةٍ من يكتشف كنزاً يريد حيازته لنفسه. أزحت شيئاً من الحطام المتراكم على فتحته على قدر فوهةٍ تسمح لانزلاق جسدي الناحل. هبطتُ على درجاته الخمس مزيحاً أعشاش طيورٍ مهجورة

وخيوط العناكب فاصطدمتُ بباب حديدي صدئ، يوحي صداه بأنه موصد منذ قرون. حركتُ القفل الحديدي الكبير فتفتتَ في يدي كحفنة تراب رطب. دفعت الباب بقدمي بهدوء وحذر شديدين مصغياً إلى الصمت القابع خلفه:

«سجن؟ مغارة أشباح ؟ أم سرداب عابد منسي؟»

أغلقتُ الباب بهدوء وعدت إلى باحة المسجد. كان الكل نياماً سوى عينين جميلتين ترقبانني بشبقٍ متحفز أو هكذا أوحى لي شيطاني. اغترفت حفنةَ ماء وسكبتها على وجهي ورأسي كي استيقظ من حيرتي وأبعد الهاجس الذي ما انفكت تحاصرني سياط يقظته. كنت أسمع دقات قلبي وهو يخفق بعنف. عدتُ إلى شجيرة الورد وجلست متكئاً على أغصانها اليابسة. كانت عينا ماريانا ترقبانني بفضول. أغمضتُ عيني متحاشياً النظر إليها هرباً من الخاطر الذي انتصب منتعظاً في وجودي. حاولت أن الاويه، أكبحه. توسلتُ بآلهة الروح أن تحميني منه أو يتركني إلا أنه كان الأقوى. غمزتُ بعيني إلى ماريانا بأن تتبعني. أدركتْ إشارتي بغريزة أنثى خبرتْ سيرك الحياة واللعب على حباله فتحركتْ بتثاقلٍ في البدء، وحينما تأكدتُ من استجابتها ونهوضها سبقتُها إلى المكان دون أن ألتفت كيلا أثير فضول أحد. هبطتُ الدرجات الخمس، دفعتُ الباب فصرّ صريراً خفيفاً، تكشف أو هكذا حسبتُ عن هاوية لا قاع لها، تلك اللحظة نسيت العالم والرجال والطريق والوطن، لم أرَ في الظلام سوى جسد ماريانا الذي سيضيء لي الطريق إلى عمق السرداب. هبطتُ السلالم بحذرٍ متحاشياً الارتطام بهياكل لا وجود لها. صوت شيطان صاخب في داخلي كان يحرضني على الهبوط إلى الأعمق، فلم يردعني المجهول وصيء

العقارب وفحيح أفاعٍ تختبئ في جدران العتمة. أهبط .؛ أهبط وصوت أقدام ماريانا يتبعني فيطمئن شيطاني إلى براعته. أضعتُ حساب الدرجات التي نزلتها ولكنها ليست قليلة بالتأكيد حتى غدت فكرة الرجوع عن قرار الغور في أعماق الظلمة عبثاً. فجأة ساد صمت حتى لم أعد أسمع وقع قدمي على السلم بل لم أعد أسمع صوت لهاثي:

«هل تمنعت ماريانا عن خوض المغامرة؟»

«هل تخلّى الشيطان عني؟»

«هل دخلتُ مكاناً أخرس؟ أم أن صمماً قد أصابني؟»

بعد ذلك انطلق صوت من مغاور روحي حتى حسبتني أحتضر فغمرني شعور غريب بعد أن سمعتُ صوتَ رغبتي وهي تنفصل عن جسدي فتطقطق مثل عظمٍ ناتئ يُلوى ثم تسقط محدثةً صفيراً غريباً حتى ارتطمتْ في قاعِ العتمة ليرتفع صوت كصوت حجر يرتطم في ماء بئر عميقة. شعرت بخفةِ جسدي كأنه قد تحرر من جاذبية الأرض. لم أعد أتذكر ماريانا ولم أعد آبهاً إن كانت تتبعني إلى سرداب الرغبة أم لا. جسدي يتحول إلى مادة هلامية ينزلق بخفة في الظلام. هبوط حرّ كخيط شعاع يخترق بئر الظلمة، ثم فترة صمت يعقبها صوت عظم ناتئ آخر يطقطق وينفصل ببطء عن ما تبقى مني... سقطت إرادتي في قاع العتمة فلم يعد للقرار من معنى، لا النزول ولا الصعود، لا الإقدام ولا التراجع، لا الظفر ولا الخيبة، طائرٌ يحوم منتشياً في غابة الظلام، التحليق عشّه والحرية جناحاه، وحده في سماء العزلة ككوكبٍ يتدلى في وادي السكون، هناك في عمق الوادي رأيت شعاعاً ينبعث من شمعة صغيرة تضيء دائرة العمق... الصوت والصمت يتناوبان كنوبات ألم الطلق:

«أأموتُ أم أولد ثانية؟»

«...................»

هبطتُ هبوط طائر أنهكه الطيران والتقلب في فضاء العزلة، منقاره مغروز في الأرض وجناحاه مجهضان يحتضنان العدم بتشبث ومحبة... حينذاك شعرتُ بآخر شيء ناتئ ينفصل عني، فلم أعد أعي شيئاً بعد أن انفصلت مني أناي دونما صوت.

لا أدري كم مكثت في الغيبة حتى سمعتُ صوتاً يناديني من عمق العتمة:

«ادنُ!»

«.....»

«ادنُ يا...!»

«كيف لي أن أدنو وأنا بلا جسد؟»

«بالرغبةِ ادنُ!»

«سقطتْ رغبتي».

«بالإرادة ادنُ!»

«سقطتْ إرادتي».

«بأناك ادنُ!»

«منْ أنا؟»

صوتُ قهقهة حانية تضيء العتمة، وخطواتٌ هامسة تقترب مني ثم كفّ تلامس بحنوّ حطامي. تحملهُ، فيسري في روحي تيار شعور كرسيسِ حُمّى، وشيئاً فشيئاً بدأت أعضائي تعود إليّ فتذكرتُ أناي وإرادتي

وأخجلني شعور غامض حينما تذكرتُ رغبتي. استيقظتُ على قوة شعاع يخترق عيني ويداعب جبهتي بدعةٍ ومحبة.

هندي جالس بوضع تأملٍ، يداه تستقران على فخذيه وصدره مرتفع قليلاً.

«بوذا!؟»

«لا ليس بوذا، فهذا رجل نحيل كشبحٍ تلتصقُ بطنهُ بظهره».

جفناه مسبلان برمشيهما الذابلين كأن الرؤيا قد علقت بهما. نور بألوانٍ مختلفة ينبعث من جسده الناحل فيضيء المكان بدوائر ضوئية بنفسجية، زرقاء، خضراء، صفراء، برتقالية، حمراء.... كأنها شعاعُ شمسٍ يخترق الموشور. حرّكَ جفنيه برعشة خفيفة وبهدوء فتح عينيه، كان السواد فيهما غامقاً يتحرك وسط بياض صافٍ، ابتسمَ فأضيئت نشرةُ ألوان في روحي:

«ادنُ يا بُني!»

فدنوتُ.

«ها إنك تستعيد أناك وإرادتك؟»

كدتُ أسأله:

«وماذا عن الرغبة؟»

لكني خجلتُ فقهقه حتى ظهرت لثته درداء، كأنه أدركَ ما يدور في خلدي، وقبل أن أستأذنه بالسؤال قال لي:

«هاتِ ما عندك!»

ثم استدرك تحسباً من أن يستبدّ بي سوء الظن فقال ضاحكاً:

«أعني ما عندك من أسئلة، فأنا أعرف أن القادم إلي لا يحمل من دنياه سوى وجع الأسئلة ورهافة الروح».

............]

س: الحربُ دائرة. ما موقفك حيالها؟

ماهاراج: في مكانٍ ما أو في آخر، في شكلٍ ما أو في آخر، الحرب دائماً دائرة، هل وجد زمن لم تقع فيه حرب؟ بعضهم يقول إنها مشيئة الله، بعضهم الآخر يقول إنها لعبة الله.

س: ولكن ما هو موقفك أنت؟

م: لماذا تفرض عليّ مواقف؟ ليس عندي موقف أدعوه موقفي أنا.

س: أحدهم قطعاً مسؤول عن المجزرة المروِّعة والعبثية. لماذا يستسهل الناس قتلَ بعضهم بعضاً؟

م: فتشْ عن المذنب في الداخل. فكرتا (أنا) و (لي) هما أصل كل نزاع. تحررْ منهما تصرْ خارج النزاع.

س: ما فائدة أن أكون خارج النزاع؟ فالحرب لم تبدأ مع ميلادي ولن تنتهي بموتي. لستُ مسؤولاً. فمن المسؤول؟

م: الخصام والصراع جزء من الوجود. فلمَ لا تتحرى عن المسؤول عن الوجود؟

س: لماذا تقول إن الوجود والنزاع لا ينفصلان؟

م: أنت تقاتل الآخرين طوال الوقت من أجل بقائك كجسم ـ ذهن منفصل، كاسمٍ وصورة معينين. حتى تعيش ينبغي عليك أن تدمِّر.

س: مازال سؤالي بغير إجابة. أنتَ تصف الحياة ومآسيها لكنك لا تقول من المسؤول، وعندما ألح عليكَ تنحي باللائمة على الله. اعطني الجواب النهائي.

م : إليك الجواب النهائي: لا شيء موجود. الكلّ مظهر مؤقت في ساحة الوعي الكلي، الاستمرار كاسمٍ وصورة تشكلٌ ذهني ليس إلا ، ما أسهل تبديده.

س: أنا أسأل عن الآني، العابر، المَظْهَر. هي ذي صورة طفل قتله الجنود، فمن هو المسؤول عن مقتل الطفل؟

م: لا أحد والجميع. العالم هو ما يحتويه، وكل شيء يؤثر في كلّ الأشياء الأخرى. كلنا يقتل الطفل، وكلنا يموت معه. في الواقع نحن جميعاً خالقو ومخلوقو بعضنا بعضا، مسببو وحاملو وزرَ بعضنا بعضا.

س: البريء إذن يشقى عن المذنب؟

م: في جهلنا نحن أبرياء، في أفعالنا نحن مذنبون، نخطئ عن غير علم ونشقى عن غير فهم. أملنا الوحيد أن نتوقف، أن ننظر، أن نفهم، فنتملص من فخاخ الذاكرة، إذ أن الذاكرة تغذي المخيلة، والمخيلة تولّد الرغبة والخوف.

نقاتل، نقتل، ندمر الحياة والممتلكات، ومع ذلك نعطف ونضحي بالنفس. نسعفُ الطفلَ بحنانٍ ونيتمهُ، حياتنا مليئة بالمتناقضات، ومع ذلك نتشبث بها وهذا التشبث هو أصل كل شيء، على الرغم من ذلك فانه سطحي تماماً. نتمسكُ بشيء أو بأحد بكل قوانا وفي اللحظة التالية ننساه. نحن نحب التنوع، لعبة الألم واللذة، نحن ننبهر بالمتباينات، ولهذا نحتاج إلى الأضداد وانفصالها الظاهري، نستمتع بها مؤقتاً ثم نسأمها ونتشهى سلام الوجود المحض وصمته. القلب الكوني ينبض بلا توقف.

س : يمكنني أن أرى اللوحة لكن مَنْ هو الرسام؟ مَنْ هو المسؤول عن هذه التجربة الرهيبة لكن الأخّاذة؟

م : الرسام موجود في اللوحة. أنت تفصل الرسام عن اللوحة وتبحث عنه...

]......................................(1)

شعرت باختناق من رائحة القبو المتعفن والملل من حديث يخفي حيرة أكبر من حيرتي. تحركتْ أناي وانتفضتْ إرادتي. شعرتُ بجسدي قد عاد إليه نبض الرغبة فتذكرتُ ماريانا والشيطانَ والقافلةَ والوطن، ثم كانت الأمنية.

تلفتُّ فلم أجد أحداً في المسجد، وحينما خرجتُ إلى الشارع وجدتُ ماريانا وعلي كارثه وهما يبحثان عني، صرخَ علي بي غاضباً أن أسرع للحاق بالقافلة التي غادرتْ قبل قليل، وحين التحقنا بها عند مقهى القرية سألني علي:

«وين كنت؟»

«كنت نائماً في المسجد».

ظهرتْ على وجهه علاماتُ الشك في ما أقول فقال:

«لا تكذبْ. فتشنا عنك في كل زاوية فلم نجدك».

فقلتُ له بثقة:

«كنتُ نائماً تحت شجيرة الورد».

---

(1) من حوار مع نسرغاداتا مهارج بعنوان (الكمال المطلق هنا والآن) ترجمة: ديمتري افيرينوس، نقلاً عن موقع (معابر) الألكتروني.

وجهه بكلتا راحتيه، فاركاً أرنبة أنفه بهستيرية. حاولتُ أن أهدئه ظناً مني بأنه قد تأثر بالأغنية إلا أنه فاجأني بكلام أسمعه منه لأول مرة:

«لابد من الانضمام إلى إحدى الجماعات».

نظرتُ إليه بدهشة:

«ليش؟»

فأجابني دون تردد وكأنه كان بانتظار أن يسمع مني هذا السؤال:

«حتى أشعر بالراحة».

أجاب بحزنٍ فبدا لي أنه قد أخرج ما كان يكتمه فقلت مصححاً كلامه:

«تقصد الأمان!؟»

«سمّه ما تشاء».

حدقّ إلينا بغضب وابتسامة خجولة ثم نهضَ نافضاً بنطاله فتطاير الرمل على وجهينا، وسار باتجاه دائرة السكارى.

تنهدتْ ماريانا كما قد أزيح ثقل عن صدرها، وكأنها كانت تتمنى أن يتركنا علي لنبقى وحدنا نعبّ كؤوس سرّنا ونقيم جمهورية الحب في هذا القفر المظلم. نطتْ من مكانها لتجلس لصقي حتى التصقت ذراعي بصدرها. كان قميصها مفتوحاً فقد حلت الزر الأعلى بغفلة مني وبخبرة ناقصة من أنثى لا تجيد التغنج والممانعة. اندلق نهدان صغيران. قرّبتُ وجهي منهما فشممتُ رائحة الشهوة ممزوجة برائحة عرق تنبعث من الإبطين. أحطتها بذراعي مقرباً فمي من تحت أذنها فأتلعت جيدها، مُسبلة جفنيها. قبّلتها برقةٍ فذابت بين ذراعي كقطعة سكر في شاي ساخن. همستُ في أذنها:

«من أنتِ؟ ومن أي سماء هبطتِ علي في هذي الصحراء؟»

لم تجبني على سؤالي بل لوثت عنقها بغنجٍ مفتعلٍ إلى الجهة الأخرى فاتسعتْ مساحةُ القبلات. كانت تردد بهمس:

«أحبك.. أحبك.. أحبك..»

توقفتُ عن مغازلتها. وضعتُ راحة كفي على صفحة وجهها الثانية وأدرته نحوي بقوة. تطلعتُ إلى وجهها عاقداً حاجبيّ بنظرة صارمة وأنا أغور في عينيها الزائغتين من فرط الشهوة. هززتها بعنف كي أوقظها من غفوة نشوتها:

«منو أنتِ؟»

تطلعتْ إليّ، وبإصرارٍ مفتعل أجابتْ:

«ما أقول لك».

«ليش؟»

«هذا سر لن أقوله لك إلا حينما نصل وكل واحد منا يذهب في طريق».

شعرتُ بأنها مصرّة على عدم البوح بسرها. ابتعدتُ عنها قليلاً. أشعلتُ سيجارة فأخذتها مني وراحت تنفث دخانها بوجهي فتأكد ظني بأنها أنثى ناقصة الخبرة بأساليب الإغراء على الرغم من أنها تبدو قد تجاوزت الأربعين من عمرها. أشعلتُ سيجارة أخرى، وبعد فترة صمت قصيرة هدتُ بيأسٍ لاستدراجها لعلها تخطئ أو تنهار أمام إلحاحي وشهوتها فتبوح بالسر:

«وهل التقينا سابقاً؟»

فقالت:

حبلى بغبار الخيل ورمل الصحراء وانكسار السبايا. أتهجى الأسماء الأولى فأخطئ في اللفظ بعد أن شغلتنا اللغات الأخرى. صمتٌ فظّ يفضّ بكارة الأمنية ويغتصب الزهو فلم تعد للحنين رائحة الغناء ولم يعد الغناء لغة النفس التي تطيب إذا مسها الشوقُ بل صرخات مشاعر تالفةٍ، ولم تعد للوصول بعد كل هذا الضياع بهجةُ المبتغى بل سباق، سباق المسافات التي لا تنتهي وتجذيف إلى ضفةٍ مجهولة بقارب مثقوب لروحٍ عائمةٍ في الضباب.

«متى سنصل في رأيك؟»

سألتني ماريانا وهي تلهث متشبثة بذراعي وتسحل خطواتها بصعوبة.

«لا أدري».

قلتُ بمرارةٍ وضجر ثم أضفتُ:

«يبدو لي أن طريق العودة إلى الوطن يمر من الجلجلة».

«الله...»

صرخ علي كارثه ثم راح يعيد العبارة مع نفسه ويهز رأسه طرباً، ثم التفت إلي:

«قل لي شنو معنى اللي قلته؟»

فضحكتُ لسؤاله وفسّرتُ له ما أعني.

طلبَ أكثر من رجل وامرأة من أبي عبد الصمد بأن نتوقف قليلاً إلا أنه كان يرفض طلبهم بنشوة القائد المستبد، حاثاً إياهم على المجالدة مذكراً المؤمنين الذين أشرف صبرهم على النفاد بأن الله مع الصابرين. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حينما ارتفع صوت أحد الرجال يأمرنا

بالتوقف، فصرخ أبو عبد الصمد بالرجل ناهراً إياه على تجاوزه قرار القيادة، إلا أن الرجل صرخ بصوت أعلى:

«يمعودين احنه جاي ندور بنفس المكان».

توقف الجميع بذهولٍ وهم يديرون رؤوسهم علّهم يجدون نقطة ثابتة كي يتيقنوا من صدق ما قاله الرجل أو ينفوه. ولأنهم لم يجدوا سوى النجوم نقاطاً موغلة في البعد، وبسبب إلحاح النسوة والشيوخ الذين أنهكهم الخوض في الرمال، أقتنع أبو عبد الصمد أخيراً وعلى مضضٍ بأن «نبرك أو نهودج» حتى مطلع الفجر لنتيقن من صحة مسار القافلة.

انتبه علي كارثه بذكاء غريب أو بغريزته المتيقظة دائماً على ما يسقط سهواً من متاع الكلام إلى أن أبا عبد الصمد لم يتأثر بما نحن فيه من حيرة وضياع وكأنه لا يسعى إلى الوصول مستمتعاً بزهو القيادة حتى لو كانت على قافلة ضائعة، وكذلك المفردات الجديدة التي صار يستخدمها في كلامه بكثرة:

«الأنه مؤمن؟»

سألني ثم راح يردد بسخرية مطلقاً قهقهات أثارت غيظ الآخرين:

«نبرك، نهودج، القافلة، لله درك، يا قوم، يا عبد الله، يا أمةَ الله.....»

ولكي أوقف ضحكاته التي قد تسبب لنا مشاجرة مع الآخرين قلت له جاداً وبصوت واطئ:

«لا.. ليس لأنه مؤمن».

ثم أضفتُ مفسراً الأمر فصمتَ علي مصغياً إليّ باهتمام:

«إن البيئة الصحراوية هي البيئة الخصبة لإنجاب أبي عبد الصمد وأمثاله

الكثيرين، فلذلك تجده الآن يشعر بالأمان فهو يعود إلى رحم أمه الحقيقية وهذه المفردات التي تسمعها منه الآن هي لغة طفولته الحميمة وبها يستعيد ذاكرته».

هز رأسه معجباً بكلامي ثم سألني:

«لكن ليش مهووس بالقيادة؟»

«الخوف».

«ممن؟»

سألَ باستغراب، فقلتُ:

«الخوف منك ومني ومن كل الذين حوله».

وحينما رأيتُ علي وقد بدأ يصغي إليّ مستفسراً عن كل كلمة أقولها، أضفتُ:

«الخوف من الحاضر والمستقبل يجعله يلجأ إلى الماضي كي يشعر بالأمان، والخوف من التمدن يجعله مغرماً ومتشبثاً بالصحراء، برملها، بشوكها، بأفقها المفتوح، بلغتها، بل حتى بعواء ذئابها».

«ولكن ليش ما تقول احنه جبناء تركناه يتحكم برؤوسنا؟»

لم أستطع أن أجيب على سؤاله. حاولت أن أعترض على طريقة فهمه للأمور إلا أني وجدتني أتفق معه بحزن ومرارة، حيث وإنْ كان أبو عبد الصمد هو مدار حديثنا إلا أننا كنا نقصد ما هو أبعد من ذلك. وجد بصمتي مبرراً لنزقه فراح يشتم بما تسعفه اللغة من كلمات سوقية، الأحزاب والناس ونفسه ليختم سيل شتائمه ساخراً مني مردداً جملته الساخطة لكن هذه المرة بصيغة الجمع:

«أحزاب... مثقفين... جماهير... طيزي».

أضرمتِ النارُ في ما جمعناه من شوك وعاقول فأضاءت المكان، وصار بإمكاننا أن نتمرأى في وجوه بعضنا لنقرأ التعب والحزن في وجوهنا. جلسنا على شكل دوائر صغيرة كبلدان مستقلة تفصلها عن العالم حدود مقدسة. عرب، أكراد، تركمان، آشوريون، كلدان، شيعة، سنة، صابئة، ملاحدة، شيوعيون، منفيون جدد، منفيون قدامى، رجال سلطة متقاعدون، مخبرون نادمون، نسوة محجبات وأخريات بنصف حجاب، وأنا وماريانا وعلي كارثه.

فتح كل منا كيس متاعه وارتفع صوت مضغ الأكل والتجشؤ. انشغل البعض بتحضير الشاي الذي كنا نحسب أمس بأنا سنشربه مخدراً على الفحم ومطعّماً بالهيل على أرض الوطن فضحك البعض ساخراً بمرارة. لم تمضِ سوى دقائق حتى ارتفع صوتُ أبي عبد الصمد مرعداً مهدداً بالقتل كل الملحدين والفاسقين مشيراً إلى دائرة الرفاق الذين نصبوا قنينة عرق مركزاً لدائرتهم. ارتفع صوت نفير وأذيعت بيانات عسكرية وأصوات طبول تنذر بحرب ضروس بين جمهورية تورا بورا الأفغانية بقيادة أمير المؤمنين أبي عبد الصمد وما تبقى من دولة عملاء السوفييت. هجم أبو عبد الصمد مكبراً لاعناً الكفار تسانده كتيبة من مريديه بلحاهم الطويلة وقبضاتهم المرفوعة فتصدت لهم مجموعة من المدافعين عن الحريات الشخصية واشتبكت المجموعتان بالأيدي والأحزمة، ارتفعت أصوات اللكمات وتبادل الشتائم. تدخلت مجموعة من العقلاء للفصل بين المشتبكين إلا أنهم تراجعوا مرتعبين بعد أن أخرج أبو عبد الصمد ورجاله مسدسات مهددين بإطلاق النار، وفعلاً أطلق أحد الرجال من مسدسه إطلاقة في الهواء مهدداً بالموت لكل من يقترب منه فارتفعت صرخات

النسوة وأصوات العقلاء وهم يتوسلون بأبي عبد الصمد أن يلعن الشيطان الذي هبط في الصحراء. فرّ البعض من دائرة الصراع منسحبين إلى مواقع أبعد من ساحة المعركة. استطاع عقلاء القوم بعد جهدٍ وتوسلات من الشيوخ والنسوة أن يعقدوا هدنة مؤقتة بين المتحاربين بعد أن تم الاتفاق بين الطرفين بشرطٍ وضعه أبو عبد الصمد بأن تبتعد دائرة الكفار عن القافلة، فسرى مفعول الاتفاق ليس على دائرة السكارى فحسب بل عمّ الدوائر الأخرى، وهكذا صارت المسافات بين الدوائر الصغيرة تكبر حتى أصبحت القافلة دوائر منفصلة لا يجمعها سوى الصحراء ووهم الوصول إلى وطن بعيد.

«ما قلت لك أبو عبد الصمد عقد صفقة مع صاحب المقهى؟»

قال علي كارثه فهززتُ رأسي مُبدياً الإعجاب بنباهته، فقالت ماريانا:

«يجوز يفيدنا إذا عادت الليلة الذئاب؟»

«لا أعتقد».

قلتُ بيقين وأضفت:

«إنه أجبن من أن يستخدم السلاح ضد ذئب أو عدو حقيقي ولكنه شجاع فقط حينما يهدد به أبناء جلدته».

هزّ علي رأسه موافقاً، فأضفتُ موجهاً كلامي إلى ماريانا:

«ومن قال لكِ إنه يكره الذئاب؟، إنه ذئب بجسد ابن آدم».

ارتفع صوت أبو عبد الصمد ثانية خاطباً بمريديه لاعناً الكفار واليهود والنصارى والفاسقين والخوارج والرافضة، فارتفع من الجهة الثانية صوت شجي يردد بحزن:

«اللهم نعوذ بك من سوء السريرة واحتقار الصغيرة وأن يستحوذ علينا الشيطان أو ينكُبَنا الزمان أو يتهضَّمنا السلطان ونعوذ بك من الإسراف ومن فقدان الكفاف ونعوذ بك من شماتة الأعداء ومن الفقر إلى الأكفاء ومن معيشةٍ في شدة وميتةٍ على غير عدة ونعوذ بك من الحسرة العظمى والمصيبة الكبرى وأشقى الشقاء وسوء المآب وحرمان الثواب وحلول العقاب اللهم صلّ على محمد وآله وأعذني من كل ذلك برحمتك وجميعَ المؤمنين والمؤمنات يا أرحم الراحمين»[1]

بينما ارتفع صوت ثالث لا يقل حزناً وأسى:

«جم زلّه منك بينت.. ما جيت أعاتب مره

من عشرتك قل لي اش شفتْ.. غير الألم والحسره

آنه أدري يهواك القلب.. بعدك يعذّب حالي

وأدري اليحب ليله صعب.. هايم يظل للتالي

لكن فلا أرجع بعد.. لا ما أرد كل شي انقضى

لو صرت بس أنت الدوه.. لا ما أرد وأنسى المضى

جذاب...

آاااااااااخ

جذاااااااااااااااب»

تنهد علي بحسرةٍ، نافثاً دخان سيجارته باتجاه السماء، ثم راح يدعك

(١) من الصحيفة السجادية.

وجهه بكلتا راحتيه، فاركاً أرنبة أنفه بهستيرية. حاولتُ أن أهدئه ظناً مني بأنه قد تأثر بالأغنية إلا أنه فاجأني بكلام أسمعه منه لأول مرة:

«لابد من الانضمام إلى إحدى الجماعات».

نظرتُ إليه بدهشة:

«ليش؟»

فأجابني دون تردد وكأنه كان بانتظار أن يسمع مني هذا السؤال:

«حتى أشعر بالراحة».

أجاب بحزنٍ فبدا لي أنه قد أخرج ما كان يكتمه فقلت مصححاً كلامه:

«تقصد الأمان!؟»

«سمّه ما تشاء».

حدقّ إلينا بغضب وابتسامة خجولة ثم نهضَ نافضاً بنطاله فتطاير الرمل على وجهينا، وسار باتجاه دائرة السكارى.

تنهدتْ ماريانا كما قد أزيح ثقل عن صدرها، وكأنها كانت تتمنى أن يتركنا علي لنبقى وحدنا نعبّ كؤوس سرّنا ونقيم جمهورية الحب في هذا القفر المظلم. نطتْ من مكانها لتجلس لصقي حتى التصقت ذراعي بصدرها. كان قميصها مفتوحاً فقد حلت الزر الأعلى بغفلة مني وبخبرةٍ ناقصة من أنثى لا تجيد التغنج والممانعة. اندلق نهدان صغيران. قرّبتُ وجهي منهما فشممتُ رائحة الشهوة ممزوجة برائحة عرق تنبعث من الإبطين. أحطتها بذراعي مقرباً فمي من تحت أذنها فأتلعت جيدها، مُسبلة جفنيها. قبّلتها برقةٍ فذابت بين ذراعي كقطعة سكر في شاي ساخن. همستُ في أذنها:

«من أنتِ؟ ومن أي سماء هبطتِ علي في هذي الصحراء؟»

لم تجبني على سؤالي بل لوثْ عنقها بغنجٍ مفتعلٍ إلى الجهة الأخرى فاتسعتْ مساحةُ القبلات. كانت تردد بهمس:

«أحبك.. أحبك.. أحبك..»

توقفتُ عن مغازلتها. وضعتُ راحة كفي على صفحة وجهها الثانية وأدرته نحوي بقوة. تطلعتُ إلى وجهها عاقداً حاجبيّ بنظرة صارمة وأنا أغور في عينيها الزائغتين من فرط الشهوة. هززتها بعنف كي أوقظها من غفوة نشوتها:

«منو أنتِ؟»

تطلعتْ إليّ، وبإصرارٍ مفتعل أجابتْ:

«ما أقول لك».

«ليش؟»

«هذا سر لن أقوله لك إلا حينما نصل وكل واحد منا يذهب في طريق».

شعرتُ بأنها مصرّة على عدم البوح بسرها. ابتعدتُ عنها قليلاً. أشعلتُ سيجارة فأخذتها مني وراحت تنفث دخانها بوجهي فتأكد ظني بأنها أنثى ناقصة الخبرة بأساليب الإغراء على الرغم من أنها تبدو قد تجاوزت الأربعين من عمرها. أشعلتُ سيجارة أخرى، وبعد فترة صمت قصيرة عدتُ بيأسٍ لاستدراجها لعلها تخطئ أو تنهار أمام إلحاحي وشهوتها فتبوح بالسر:

«وهل التقينا سابقاً؟»

فقالت:

«نعم».

ثم أردفتْ بيقين:

«طبعاً».

«أين؟»

«لن أقول لك».

قالتها بعناد، ثم بتوسلٍ:

«أرجوك اتركْ هذا الأمر إلى أن يحين وقته».

لاحتْ في عينيها دمعتان براقتان تكورتا ثم تدحرجتا بهدوء على خديها تاركتين خطين من غبار وبقايا كحل. لم أجد حجة أمام توسلاتها وحزنها العميق فتوقفتُ عن أسئلتي مفسراً الأمر على أنه سرّ شخصي أو أمر يثير مواجع تسعى إلى نسيانها. دنوتُ منها محتضناً إياها بفيض من عاطفةٍ وشفقة فاستسلمتْ إلى قبضتي واضعة رأسها على صدري بانكسار ذليل، ثم ارتفع نشيجها. عصرتُ جسدها بقوة بين ذراعي وصدري، ممطراً رأسها بطلٍّ من القبلات ويدي تتحرك على ذراعها برقةٍ بين الكتف والمرفق. توقفتْ عن البكاء. وحينما تأكدتْ من أني لن أعود إلى الأسئلة رفعتْ رأسها إليّ وبابتسامة مرتبكة قالت:

«يبدو أن البكاء ارتبط بلقائنا».

لم أفهم ما تعني فسألتها:

«ماذا تعنين؟»

فأجابتْ ضاحكة:

«إنك لا تتذكر لقاءنا الوحيد حينما قضينا الليل في السكر والبكاء».

«أين؟»

«في الشام، قبل ثمانية عشر عاماً».

أفلتتْ مرة ثانية تاركةً صنارتي عالقة بحجر، فأنا وعلى الرغم من أني كنت بالشام في هذه الفترة إلا أني لم ألتقِ فيها بامرأة قطُّ، وتأكد لي بأنها تتوهم أشياء لم تحدث، أو ربما حدثتْ لها مع شخص آخر يشبهني حينما أكدتْ لي:

«في بيتي... في مساكن برزة».

ازداد الأمر عليّ غموضاً وتحول فضولي لمعرفة سرّ هذه المرأة الغريبة إلى قلقٍ أنساني ما نحن فيه من ضياع في طريق مجهول ولهفة لوصولٍ غير أكيد. تطلعتُ إليها بنظرة لا تخلو من حنق وبلهجةٍ آمرةٍ طالبتها بمزيد من الإشارات. ارتفعتْ ضحكتها وهي تردد:

«اترك الأمر إلى أن يحين وقته!»

حاولتُ أن أستعيد شريط ذكرياتي منذ لحظة دخولي دمشق حتى خروجي منها، غير أنها أدركت ما يدور في ذهني. وخوفاً من انشغالي عنها أو اكتشاف سرّها في هذا الوقت، راحتْ تحاول لفت نظري إلى جسدها بطريقة تفتعل الغنج والتصابي، أدركتْ ضعف استجابتي وبطء تهيجي، فوضعتْ يدها على فخذي محركة إياها بحذرٍ أول وهلة وهي تتطلع إلي لاحسةً شفتها العليا بلسان يفتعلُ الوقاحة، وحينما لم تلقَ مني اعتراضا، ارتفعتْ يدها إلى الأبعد شيئاً فشيئاً، وبجرأة فظّة أنزلت سحّاب

بنطالي مدخلةً كفّها إلى الكهف الساخن، مطلقةً صرخةً خرساء وتأوهاً لا يخلو من افتعال جراءِ عهر وهي تمسكه بقبضتها عاضةً شفتها السفلى. تلفتُّ حولي بخجل. كان الرجال كتلاً سوداء غارقة في الظلام وكانت أصواتهم المتلعثمة بالسكر أو النعاس ترتفع بين الحين والآخر بنقاشات سياسية تختلط بشخير رجال متعبين توسدوا الأرض وغطوا بنومٍ عميق. قلت لها هامساً:

«إحذري، لئلا يرانا أحد!»

قالت:

«أتوسل إليك أن تلبّي لي هذه الرغبة فقد لا أراك مرة أخرى».

ثم أشارتْ إلى حفرة خلف كثيب رمل ليس بعيداً عن موقع تجمعنا فأدركتُ بأنها قد مسحت المكان مسبقاً وبنية مبيتة. حدقتُ في وجهها كانت أمواج الهوس والشهوة تتلاطم فيه وشفتاها ترتجفان برعشة خفيفة، كان جفناها مُسبلين على حدقتين زائغتين وصدرها يرتفع ويهبط بحركة سريعة، كدت أرى في حركته قلبها المرتعش وهو يحاول الهروب من قفصها الصدري. ضعفها وارتعاشة جسدها أثارا فيّ الشهوة فانقدت لمشيئتها. تسللنا من دائرة المكان خلسة زاحفين على مؤخرتينا ثم نهضنا حينما تأكدنا بأن لا أحدَ من الرجال يرقبنا، واتجهنا نحو أفق معتم. كانت الصحراء أمام ناظريّ تضيق وتضيق حتى بدت نقطة سوداء في خارطةٍ مبهمة التفاصيل. كانت تتقدمني ببضع خطوات ملتفتةً بين لحظةٍ وأخرى لتتأكد من متانة حبل انقيادي، حتى صرنا خلف كثيب الرمل المشرف على حفرة أو جحرِ ذئاب. التفتتْ إلي وبلغة خرساء اختصرت قاموس الرغبة. نطّتْ في الحفرة مثل أرنب بري. تبددت مخاوفي وهواجسي حينما

انمحى الأفق أمامي واختصِرَ الفضاءُ بعجيزةٍ صارخةٍ كمّمَ صراخُ شبقها صمتَ كبريائي. تخيلتُ الحفرة غابةً كثيفة تختزن العواصف والرعود بين أشجارها السود فيتردد زئيرها كدوي قذائف مصحوباً بعواء بشري تحت سماءٍ قريبة تكاد نجومها الساطعة تلامس أطراف الأشجار.

استلقتْ ماريانا على ظهرها فاتحة أزرار قميصها واستلقيتُ إلى جانبها. نهداها صغيران بحلمتين ناعمتين كحلمتي صبي. رميت قميصي في قاع الحفرة. كان صدري يطلق صرخاتِ هوسٍ ساخنةً تألفها عصافير النهدين فتزقزق بغبطة. ارتميتُ على جسدها، وابتدأتْ ساعة الصخب وانشق قمرُ الجنون فألفيتُ اشتعالي صخرة ملساء تدحرجتْ عليها شهوتي، وكأني أعري العراء من عريه. راحت أصابعي تحل أزرار ترددي فبدا العراء أنيقاً، فاتناً يفيض بالخصب. قبّلتها فأنشبت أسنانها في شفتي السفلى ثم راحتْ تمص لساني وأظافرها مغروزة بظهري. كان جسدها قبضةً من نار، سرتُ على لهيبه بعنفوان شلال، نشرتُ الخرائط وأحكمتُ بوصلات الرغبة.. العبث.. الجنون، هنا جبلٌ.. هنا سهل.. هنا نهرٌ.. هنا وادٍ عقيقي.. هنا دلتا لمأوى الجن. حللت أزرار بنطالها وامتدتْ يدي كي تمسك جنيّةَ الشبق من شعرها الكث، فانتفضتْ ماريانا بخوف مزيحة يدي قبل أن تصل بوابة المغارة. وحينما رأت إصراري على الاقتحام والولوج، انقلبتْ على بطنها، محكمة ربط الحزام على خصرها. لم يختلف المشهد بل صار أكثر إثارةً. تسلقتُ عجيزتها غارزاً كلاّب جنوني بين ردفيها، مرتمياً على ظهرها، عاضاً بنهمٍ العضلة الفاصلة ما بين رقبتها وعظم الكتف فصدرتْ عنها تأوهات ساخنة ونداء توسلٍ لافتراسها بغرزِ أسناني بعمق في عضلة كتفها وجعْل ضمي إليها أكثر عنفاً وإطالة فترة ارتمائي على ظهرها. كانت

تتمرغ على رمالٍ من السحر ساخنةً وأنا أتنزه في خضرة جمرها، وحينما شعرتُ بأن ماردي بدأ يتململ في فضائي واستبد به شوق للولوج إلى القمقم، سحبتُ بنطالها ولباسها الداخلي معاً إلى الأسفل فأشرقتْ عجيزتها في العتمة بيضاء وقد رسم اللباس الداخلي حدوداً سمراء على مساحة البياض. انتفضتْ ثانية ونهضتْ وهي تزرر بنطالها، متوسلة بي أن لا أفعل ذلك. ارتميتُ على ظهري في الحفرة خائباً وكأن مطراً ثلجياً هطل على ناري.

«أية امرأة طاعنة في السر هذي، السر الذي لم يغزُ عقلها وروحها فحسب بل احتل كل مسامة من جسدها».

استلقتْ بانكسارٍ إلى جانبي مداعبة بأناملها شعر صدري. شعرتُ بشفقةٍ نحوها فسحبتُ رأسها لتستقر على صدري ممسداً شعرها برقة. سلّمتْ شفتيها إليّ فقبلتهما فحشرتْ لسانها داخل فمي متأوهةً وكأنها تستجمع كل طاقتها لإغرائي فضممتها بقوةٍ أعادت إليها الثقة بجسدها فتسلقتْ جسدي ببطء حتى توقفتْ في سمائي كغمامة بيضاء ألقت بوابل من قبلات على وجهي وعنقي فاركةً حلمتيها الناعمتين بصدري. استمر وابل القبلات بالهطول على جسدي والغمامة تمضي جنوباً ببطء شديد، كدبيب يدِ خالق يدحرج الرياح ويفتح مصراع المدى. وضعتُ ذراعيّ تحت رأسي فارتفعتْ قليلاً ورحتُ أرقب رأس ماريانا وهي تمسح بشعرها جسدي فيضاء بشحنة نَتْلٍ عالية. رفعتْ رأسها فالتقت عيناها بعيني، غمزتني بطرفها فارتعش جسدي. مسكتْهُ بقبضتها فانتعظ بكفّها، قبّلتْ رأسه لاحسةً جذعه بطرف لسانها مُصدِرة أنيناً مختنقاً، ثم أدخلته إلى فضاء فمها وأطبقتْ عليه.....

مطرٌ ناريٌّ يهطل على جسدينا ونحن نستحم بعطر التراب.

عدنا إلى دوائر القافلة بوجل، وحينما بدا لنا كل شيء كما تركناه ولم يشعر أحد من الرجال بغيابنا أشعلنا سيجارتين ورحنا ندخن بصمت واسترخاء. تمددتُ على الأرض متوسداً حقيبتي الصغيرة فألقت ماريانا رأسها على ذراعي دافنةً وجهها في صدري وغابت في نشوة غافية، وأنا أتأمل سماءً أكثر من زرقتها تعطي وكواكبَ ينثرها الليل حولي كأني في نشوة التحليق أصغي إلى غناء ربّ ثمل.

فجأة وقف علي كارثه عند رأسينا مترنحاً من شدة السكر وهو يطلق ضحكة بصوت عال. جفلتْ ماريانا وجلستْ وهي تزرر أزرار قميصها وتعقد خصلات شعرها. سأل بصوت منهكٍ ورأس لا تستقر على عنقها:

«وين كنتو؟.. ها»

وارتفع صوته بضحكة سكران لا يستطيع السيطرة على شعوره وهو يحدق إلى وجه ماريانا بنظرة طافحة بالشبق. ولكي أتلافى الفضيحة التي قد يثيرها ضحكه بإيقاظ النائمين، دعوته للجلوس وقدمت إليه سيجارة. راح يدخّنها وينفث الدخان دوائر في الفضاء. دعك وجهه بكلتا راحتيه بهستيرية فتوجست منه شراً. تطلّعَ إلي ببلاهةٍ وعيناه شبه مقفلتين من السكر، وبنظرةٍ سخريةٍ ذات مغزى جنسي تطلع إلى ماريانا التي أغضت بصرها خجلاً، ثم سمّرتْ أنظارها في الأرض. التفت إليّ وهو يوشك على التقيؤ:

«قلْ لي شنو معنى المثقف العضوي؟»

وعلى الرغم من إدراكي بأن الدافع من وراء سؤاله السخرية والغمز إلا أني حاولتُ أن أكون جاداً معه فتهيأت للإجابة ولكن قبل أن أفتح فمي قاطعني بنزق:

«لا تقلْ لي قال فلان أو فلان، بلا غرامشي بلا بطيخ».

حاولتُ تجاهل نزقه فأجبته بابتسامة سخرية واستصغار. أدرك مغزاها فسألني بغيظ:

«قل لي هل أنت مثقف عضوي؟»

«.............»

فأضافَ:

«لا، أنت مثقف طنبوري».

وحينما سألته عما يعنيه، قال:

«ما سامع المثل اليقول عرب وين طنبوره وين؟»

ولكي أوقف تماديه، حاولتُ أن أغير الحديث فسألته:

«ألم تنتمِ إلى إحدى الدوائر؟، ألم تشعر بالراحة والأمان مع أحد؟»

تطلع إلي غاضباً ثم قال:

«كلهم أوغاد...»

صمتَ قليلاً وتنهد فانطلقتْ من فمه حسرات سكرى مختلطة برائحة عرق نفاذة:

«أقصد كلكم أوغاد».

ابتسمتُ له بحزن محاولاً ازدراد وقاحته. أدركتْ ماريانا ذلك فقالت له لتغيير الحديث:

«قل لي يا علي ماذا ستفعل حينما تعود إلى البلاد؟»

فأجاب وقد ضيّق عينيه محاولاً التركيز:

«مَنْ قال لكِ إني سأعود؟»

ضحكتْ ماريانا، فنظر إليها وجسده يتأرجح إلى الأمام والخلف:

«أنا لم أخرج من الوطن بسبب السلطة الفاشية والنظام الدكتاتوري».

«لماذا خرجتَ إذن؟»

سألته ماريانا بلهجة مزاح، فأجاب:

«أنا خرجتُ من وطن يفرّخ أوغاد وسفله».

وحينما وجدني صامتاً، لا أعير له انتباهاً قال موجهاً كلامه نحوي:

«لكني أحبك ولهذا السبب جاي أقول لكم وداعاً».

جلس على الأرض ماداً إلي يده فمددتُ يدي إليه مصافحاً ساخراً من لة الجد المفتعلة والتي خبرته بها كلما أثقل في الشرب. نهض وهو دّل ياقة قميصه ووضعَ الحقيبة الصغيرة على كتفه، رافعاً يده مترنحاً و يردد:

«في أمان الله..»

ثم وبإشارة ذات مغزى راح يصرخُ بالدنماركية:

"farvel ,farvel"

فضحكتُ بصوت عال، وبالطريقة نفسها ناديته:

"Hvor skal du hen"

التفتَ إلي وبلهجة جادة أجابني:

«سألحق بجلال مختار وعبد الساده».

ثم سار عائداً باتجاه الغرب وهو يردد:

«وداعاً للأوغاد».

حتى غاب في الظلام.

طلبتْ مني ماريانا جادة أن ألحق به لأعيده فقلت لها بثقة:

«سيصحو بعد قليل ويعود بنفسه».

واضفتُ:

«هذا ديدنه دائماً منذ عرفته».

ثم استلقيتُ ماداً ذراعي فرمتْ ماريانا برأسها وغفونا.

صرخة قوية أطلقها رجل فهبّ الجميع واقفين. بعضهم كان يفرك عينيه طارداً النعاس أو السكر لاعنين الليل والغربة والوطن والسلطات الجائرة بل من بينهم من لعن اليوم الأسود الذي غادر فيه الوطن واليوم الذي قرر العودة إليه واليوم الذي ولد فيه وكأنه لم يجد يوماً أبيض في حياته لا يستحق اللعنة. كان الرجل يصرخ ويشير إلى جهة الأفق الذي كان دائرةً من نقاط صفر تومض في العتمة. صرخ شيخ بنا لجمع ما نستطيع من الأشواك والعاقول لإيقاده «فالذئاب تخاف النيران»، لكن النقاط ظلت تقترب وتبرق وصوت لهاث وهرير يقترب أكثر حتى بدا جيش الذئاب يحيط بنا. انكسرتْ حدود الممالك المستقلة وتداخلتْ ببعضها وتكدس الرجال على بعضهم في مركز الدائرة التي بدأت تضيق. أخرج أبو عبد الصمد ورجاله مسدساتهم وراحوا يطلقون النار في الهواء لكن هذا لم يوقف زحف الذئاب بل ارتفعت حدة عوائها مكشرة عن أنيابها المتحفزة للافتراس، حتى طلبنا يائسين من أبي عبد الصمد ورجاله أن يكفوا عن إطلاق الرصاص، وفعلاً توقفت الذئاب عن العواء ثم خَفَتَ هريرها حتى

تلاشى لكنها بقيت متحفزة تكشر عن أنيابها كلما اقترب أحد الرجال منها.

صرختْ ماريانا وقد تجمدتْ في مكانها وهي ترتعش شادةً شعر رأسها بكلتا يديها. هرع إلينا الرجال ظناً منهم بأنها أصيبت بأذى أو نوبة هيسترية، كانت تشير وقد تجمد الكلام وانعقد لسانها إلى الذئاب القريبة منا والتي جاءت من الأفق الغربي. انتبهنا، كان الدم يلوث أبوازها وأنيابها. لم أدركْ سبب خوف ماريانا من دم على أنياب ذئاب حتى صرختْ بي غاضبة وهي تشير إلى جهة الغرب منفجرة بكلامٍ متقطع:

«شوفْ، شوف الدم، دم علي».

فتذكرتُ أن علي قد غادر بهذا الاتجاه ولم يعد، وأن ما تهجس به ماريانا ليس بعيد الحدوث خاصة وأنه من المستحيل أن يكون قد وصل القرية قبل أن تلتقيه الذئاب. حاولت تهدئة ماريانا بتهوين الأمر على الرغم من أن قلقي كان أكبر وهواجسي كانت أكثر يقيناً بأن الذئاب قد افترست علي كارثه. تأسف البعض من الرجال بينما لم يعر البعض الآخر اهتماماً. سأل رجل من جماعة أبي عبد الصمد:

«من هو علي كارثه؟»

فراح شخص آخر يصفه إليه، وحينما ارتسمت ملامحه أمامه قال بلا مبالاة:

«هذا الفاسق.. المجنون؟»

ثم أردف عبارته:

«إلى جهنم وبئس المصير».

وكما حدث في الليلة الماضية، أقعت الذئاب على مسافة بضعة أمتار منا

واضعة رؤوسها بين قائمتيها ونامت، فارتفع صوت جابر الشلولو الذي لم أسمع صوته من ليلة الأمس، مطمئناً القافلة:

«ألم أقل لكم أمس إنها جاءت لتحرسنا؟»

ليس الشعور بالاطمئنان بل اليأس هو ما دفعني إلى أن أفترش الأرض وأعود لإكمال غفوتي مسلّماً الأمر إلى حكم الذئاب ونزوتها، تاركاً الرجال يرددون أدعيةً لطرد الخوف والصلاة تقرباً إلى الله ليفرج عنهم هذا الكرب، وبعضهم راح يتهامس مشيراً إلى ماريانا التي غفتْ على ذراعي مستهجناً الوقاحة التي دفعتنا إلى الخروج عن الأعراف والتقاليد حتى ونحن في هذا الظرف العصيب:

«كيف لا يغضب الله علينا؟»

«وكيف تنزل رحمته بوجود الكفّار بيننا؟»

قال البعضُ محملاً إيانا كلّ الأوزار، لاعناً الغربة والغرب الكافر الذي مسخنا قروداً، لا نخجل من الفضيحة وكشف العورة، حتى الذين كانوا من دعاة التحرر، بل من بينهم من عاش في الغرب حياة تهتك ارتدى رداء الورع واحترام التقاليد بحجة الحفاظ على الهوية المهددة من الاستعمار وعملائه (الشيوعيين).

بضع لحظات مرتْ على غفوتي حسبتها الليل بأكمله. استيقظتُ مرعوباً ومازال الحلم يسحب آخر لقطاته من جفني، تطلعتُ إلى ماريانا كانت نائمة بعمق وقد ارتفع شخير بعض الرجال الذين تراصوا جنبنا، حاولت أن أعود إلى غفوتي إلا أني وجدتني أستعيد ما رأيت محاولاً إيجاد تفسير واقعي على الرغم من إدراكي بأنه مجرد حلم.

«لا تخفْ، الدمُ يفسدُ تأويل الحلم!»

قالت أمي حينما قصصتُ عليها رؤياي. ربما كان ذلك أول حلم رأيتهُ في حياتي، ومنذ ذلك اليوم وأنا متصالح مع كوابيسي التي أفسدَ الدمُ تأويلها.

حينما عصبوا عينيّ واقتادوني إلى ساحة تنفيذ حكم الإعدام، كنتُ أضحكُ في سري من الجلاد الذي سينفذ بي حكم الرمي، حيث أني كنتُ واثقاً من أن الدم سينبثق من جسدي مثل نافورة فتصطبغ لوحة الكابوس بالدم، عندئذٍ سيفسد تأويل الرؤيا وسأنهض من موتي رغم أنف الجلاد.

مرة كنتُ أحاول أن أجرح رسغي بحديد الكلبجة، حينها تنبه العسكري المأمور بمصاحبتي في رحلةٍ بين سجنين، أشهر مسدسه بوجهي مهدداً بإطلاق الرصاص على رأسي إن فكرتُ بالهرب فسخرتُ من غبائه وجبنه واشتدّ غضبه حين وجدني أضحكُ بانتشاء وأنا أتطلع إلى قطرات الدم التي سوّرت معصمي.

حملتُ ـ بيديّ هاتين ـ عشرات الجثث، جثث أصحابي الجنود في جبهات القتال وكنتُ مطمئناً من أن جثتي لن يحملها أحدٌ منهم حيثُ أني سأستيقظ قبل أوان موتي أو أن الدم النازف من صدورهم ورؤوسهم التي هشمتها الشظايا سيُفسِدُ تأويل الحلم، وهذا ما حدث فعلاً وإلا ما استطعتُ كتابة ما أكتبه الآن. حتى آمر السرية الذي عاقبني بالوقوف ساعة في الأرض الحرام تحت القصف الشديد قبل يومين من الهجوم الكاسح الذي شنّه العدو على سَريّتنا (لا أدري إنْ كان عدواً حقاً أم أنه مثلي يعيش كوابيسه)، ذلك اليوم الذي لن أنساه أبداً والذي كذّبتُ فيه يقين أمي حينما تلمستُ تأويل الحلم لمس اليد على الرغم من دموية المشهد. أقول، حتى

آمر السرية ذاك الذي قتلتُهُ ـ بيدي هاتين ـ ثم سحقتُ جثته بدبابتي فتحول إلى بقايا لحم عالقة في سُرفةِ الدبابة التي تركتها في ساحة المعركة وهربتُ راكضاً. وجدتهُ عند عودتي إلى الخطوط الخلفية واقفاً أمامي بغطرسته المعهودة وألفاظه البذيئة، وكلما مر من أمام كردوس الجنود المصطف للتفتيش صباحاً كان يقف أمامي طويلاً يبحثُ عن أية حجةٍ لمعاقبتي. والغريب في الأمر أنه كان يعلم بأني أنا الذي قتلته ـ بيدي هاتين ـ وظل يتحين الفرصة كي يثأر مني، ولكنه لم يستطع طبعاً فقد قُتل في المعركة الثانية وهربتُ أنا خارج دائرة الكابوس.

ألم أقلْ بأني متصالحٌ مع كوابيسي؟

وهذا ما جعلني أحافظ على كامل قواي العقلية وأمارس حياتي الطبيعية كإنسانٍ وكمواطنٍ راشدٍ ينتمي إلى هذه الكرة الأرضية المحمولة على قرن كركدن. لكن الذي أفعم روحي بالأمل هو الحلم الذي رأيته قبل قليل فقد أعاد لي يقين أمي بأنه سيتحقق لا محالة فهو أول حلم في حياتي لم أرَ فيه قطرة دم واحدة وإنْ كان الدم هو المركز الذي تدور حوله أحداث الحلم لكني لم أرَ دماً وأنا على يقينٍ من ذلك وهذا سبب كافٍ لتحقق الرؤيا.

أخبرني الرجل ذو اللحية البيضاء التي تصل الأرض والذي كنتُ أحسبهُ ـ في الحلم طبعاً ـ بأنه أبونا آدم عليه السلام، سرّاً جعلني أفكر فيه كثيراً، سرّاً أكاد أجزم بأن لا أحدَ من أحفاده قد شغل نفسه في البحث عنه. أخبرني الجدّ بأن له ولداً ثالثاً قد اختفى ولم يترك على الأرض أثراً يدل عليه حينما اختصم أخواه حول القربان الذي قدّماه إلى الرب، وحينما سألته بحيرةٍ عن سبب اختفائه، أجابني:

«إنه كان رافضاً للعبةِ من أساسها».

تألمت كثيراً لاستيقاظي فلقد كانت لدي أسئلة كثيرة بودي أن أطرحها على أبينا آدمعليه السلام عن ولده الضائع :

«ما اسمه؟ ماذا كان موقف أخويه منه؟ وما موقفه هو من الرأي الذي طرحه؟»

وأسئلة أخرى عن الرب والجنة والأسماء الأولى وأمنا حواء والقربان....

كابوس ٢

طفلةٌ تربتُ على كتف تمساحٍ. تدغدغه فتدمعُ عيناه غارقاً في الضحك. أسمع صراخ طفلةٍ قادماً من قاع الضحك.

كابوس ٣

تتوقف السيارة عند ساحة في مدينة الكوت. أنزل منها حاملاً حقيبتي وأمشي باتجاه بيتنا. مطرٌ أسود، الأشجار سود، الجدران مصبوغة بالأسود، مياه سوداء تجري نحو فتحات مجاري تصريف المياه الوسخة، الشوارع مكفهرة سدّ وحل الظلام منافذها، الناس زنوج يمشون في الشوارع غير آبهين بالمطر الأسود. أصلُ إلى الشارع العام حيث يقع بيتنا بموازاة نهر دجلة. كانت المياه، لا ليست مياهاً تجري في دجلة بل قار ساخن. بضع خطوات وأصل بيتنا، ينفتح الباب، يخرج أبي وخلفه أمي ثم أخوتي وأخواتي يلبسون أكفاناً سوداً ويحملون بأيديهم زهوراً سوداء. يسيرون بنسقٍ قاطعين الشارع الرئيسي متجهين إلى النهر. أناديهم ولكنهم لا يسمعون صراخي. يغوصون في النهر لم يظهر من أجسادهم سوى رؤوسهم السوداء، ثم يختفون في قاع النهر، فقاعات سوداء كبيرة تطفو على سطح النهر، ثم تنفجر في الفضاء فتغطي الشارع شظايا سوداء وقطع من لحمٍ بشري محروق.

كابوس ٤

متدثراً بعباءةٍ من وَبَرٍ، لا أدري كيف حصلتُ عليها لكني أعرف أني لم أقتلْ أو أسلبْ أحداً. أسير في تيهٍ يعرفني. للتيه أبوابٌ مفتوحةٌ على خواءٍ مطلق. أركض.. أركضُ، استنجد بكل المفردات كي أؤاخي الأشياء والمدلولات بأسمائها ودلالاتها. حبّاتُ الرمل تختزن سراباً أو ذاكرة سراب والعواسج أوسع المظلات في هذا القفر. أهرب من الشمس الحارقة. أركض.. أركض. أسمعُ صوت لهاث خلفي. ألتفتُ، لا أرى غير ظلي يركض خلفي. أشعر بالتعب. أقف ثم أستظل بعوسج.

كابوس ٥

قاعة كبيرة تزدحم بالناس بانتظار بدء الأمسية الشعرية لشاعرة سمعتُ باسمها كثيراً. أجلس بين المقاعد. يرفع رجل بدين رجله ويضع قدمه على رأسي، آمراً إياي أن لا أتحرك. يظهر عريف الحفل عارياً ينقر المايكرفون ثلاث نقرات ثم يتنحنح ويسعل. يصل رذاذ سعاله إلى وجهي. يعلن عن الترحيب بالشاعرة الكبيرة (زكية جاسم). تخرج الشاعرة على المسرح وهي ترتدي كفناً قديماً يكشف عن وجهٍ شاحب بعينين سوداوين وأنف كبير. وجه أليف جداً كأنه لم يغادر مرآتي لحظة، تقرأ عنوان القصيدة:

«إلى ولدي»

فيصفق الجمهور حينما تذكر اسم ولدها الذي لم أعد أتذكره، ثم ترتفع موجة نحيب وبكاء. تستمر فترة من الوقت لم استطع حساب دقائقها، يعمُّ صمت رهيب حتى تكاد تسمع دقات القلوب، ثم تبدأ بقراءة قصيدتها بكبرياء وحزن واضح صدقهما. عاصفة من التصفيق والهتاف، فصمتُّ

ينذر بالعاصفة ثم عاصفة بكاء ونحيب، هياج، بُحران، أصوات طبول، أصوات ضرب سلاسل وتطبير، صوت عبد الزهرة الكعبي، لم أعد أتذكر من القصيدة سوى بيت واحد ظل يرن في أذني حتى بعد استيقاظي:

«حتى خيالكَ موجعٌ

حتى سرابُكَ مالحُ»

كابوس ٦

كنتُ أنا وشوارتزكوف جالسين في خيمةٍ وبيننا نطعٌ وسيف. نتجاذبُ أطراف الصحراء، وكان المغني يغني:

«معصمٌ يذعنُ للريحِ

إلهٌ يسرقُ الصيتَ

رميمٌ هندسَ الماضي

وسجنٌ غامضُ الرحمةِ

رؤيا

يا

يُبَه يا يُبَه يا يُبَه

أووووووووووووووووو»

... واستيقظتُ على عواء الذئاب وهي ترفع أبوازها نحو السماء، بينما تسمر الرجال بخوف وذهول وانكمشت النسوة على بعضهن بكتلة سوداء لا يظهر منها سوى عيون خائفة. توقفت الذئاب عن العواء ثم أدارت لنا ظهورها وانطلقت نحو الجهات التي أتتْ منها مخلّفةً غباراً كثيفاً حتى لم

يعد يرى أحدنا الآخر. وحينما انقشع الغبار كانت الذئاب قد اجتازت خط الأفق الدائري مخلفة في نفوسنا قلقاً و يأساً يصل حد الشعور بعبثٍ يطال كل شيء، فلم يعد الوصول إلى الوطن (بل الوطن نفسه) ذا معنى، لكنه في النفوس المكابرة وهمٌ جاهز، يفيق من سباته كلما لم يجد المكان مكاناً يقيم عليه، وتعجز الحقيقة عن اجتراح أوهامٍ حقيقية.

الفصل السابع

لم أكن أدركُ أن غياب علي كارثه سيسببُ لي كل هذا الفراغ والارتباك على الرغم من مرور بضع ساعات على غيابه. هل كان جزءاً مني أظهِرهُ مرةً وأخفيه وأكابر في إخفائه مرة أخرى؟ هل كان يأسه وعبثه وحقده على الآخرين صورةَ الخوفِ والترددِ التي أخفيها؟ هل كانت الأسئلة التي ينشرها كل لحظة على رأسي هي أجوبتي الناقصة أو التي تدّعي القول ولا تقول إلا خواءً؟ هل كانت جرأته بل تهورهُ بقول ما يؤمن به والقرار الذي اتخذه في لحظة سُكرٍ هو ما كان ينقصني؟.... أسئلة كثيرة كان يُنبتها غيابه أمامي في الطريق التي بدتْ لي طريقاً نحو المجهول والعبث.

«ماذا بعد هذي اللعبة الأخرى؟»

هكذا كان الأمر بالنسبة إليه مجرد لعبة أو سباقاً لا ينتهي على مضمار متحرك.

«... نعم يا علي، إن مأساتنا تكمن في أننا أدمنّا الهرب كأننا في سباق بلا نهاية وندرك منذ البدء بأن المضمار مراوغ وأننا خاسرون. نفرّ مذعورين ونعدو خلف ظلالنا. نحن الضالين.. الواقفين، ندور.. ندور ونحسب أننا في دورة الأفلاك ندور. عبرنا بحاراً بحثاً عن المآثر بفورةِ فتيانٍ متنمرين لكننا عدنا شيوخاً مع أول شعاعٍ منكسر على مرايا الفجر،

فلم نكن أهلاً للمغامرة ولم تكن هناك مآثر بعد البحار بل صحارى وجدران تصدمنا في كل خطوة. كل الطرق التي مشينا فيها كانت مغلقة. هل كانت مغلقة حقاً؟ أم كنّا لا نرى أبعد من خطوتنا الأولى على جسد الطريق؟ ردوبٌ أو دروب نحو المنافي والضياع، وكل الدروب كانت تلتقي في حانة الغرباء، نعبُّ فيها كؤوس السم وننتظر موتنا الذي هو الآخر كانت له حساباته الخاصة معنا....

الموت!!

هل مر على هذه الأرض شعب غيرنا، يتآلف فيه الفرد مع هذه الكلمة كما يتآلف مع اسمه؟ أول أبجدية الحياة، يرضعه الطفل مع تنويمة الأم، تقمطه ببراءتها الساذجة كي تقوى عظامه ويحسن المشي ولم تدرك أن الطرق التي سيسير فيها معوجّة، وسيشنقه حبل قماطهِ، يسمعه في حديث الجدّات قبل النوم، ويطربه في الأغنيات.

«دللول.. دللول.. عدوكَ عليل وساكن الجول..»

«من أين لهذا الطفل أعداء وهو الذي لم يبلغ عمره سوى ساعات؟»

الخوفُ يتربص بنا، خلف كل شجرة يكمن شبح يتحين الفرصة للانقضاض علينا، في عمق كل عتمةٍ يكمن جنّي، حتى النهر تنين فاغر فمه بانتظار أجسادنا أو شيطان يغوي زوارقنا الورقية في الرحيل إلى مدى مجهول... مهرجانات وكرنفالات للحزن كنا صغاراً نفرح بقدوم موسمها السنوي، نمارسها مبتهجين ونسهر الليالي العشر الحزينة من كل عام احتفالاً بها ونفخر بالحزن، نخرج كل ليلةٍ بدشاديشنا السوداء، الكالحة نستقبل مواكب الحزن ونسير معها في الشوارع، رافعين بيارقها السود مبتهجين، فخورين بحزننا. أرأيتَ أطفالاً لا يفتخرون بألعابهم وأحلامهم

بل بحجم الحزن الذي يسكن قلوبهم الصغيرة؟، ننتظر يوم العاشر من أيام المهرجان، نبقى ساهرين حتى الصباح، ندور في شوارع المدينة السوداء ونقرع بالعلب المعدنية وبأغطية القِدور ونردد:

حجّه للصبخ ما انام

بعيوني ملخ ما انام

ثم يحاصرنا الموت بشتى ألعاب القضاء والقدر، في النهر.. في الشارع.. في المدرسة يخرج إلينا من قصيدة للخنساء نقف نرددها مثلما نردد أسماءنا:

يعرّقني الدهرُ نهساً وحزّا ويوجعني الدهر قرعاً وغمزا

ثم تأتي السجون... الإعدامات... الحروب... والغربة.

في الغربة نصغي إلى الموت كل ليلة فنسمع خطواته قرب الباب، يتقدم، يوشك أن يطرق الباب لكنه لأمر ما يتراجع مؤجلاً زيارته لليلة القادمة لكي نكون أكثر استعداداً له وأكرم ضيافةً، ولكثرة ما مرّ بأحبابنا صرنا نشتاق إليه، في الليل نهيئ مائدته وكأس نبيذه وننتظر، لكنه لن يأتي قبل أن نستنفد كل طاقتنا على الانتظار.

كان موت علي كارثه بهذه الطريقة العابثة قد أثار أسئلة لا تقدر النفس على كتمانها، أسئلة كانت تنبتُ، تورق، تزهر، ثم تثمر فاكهةً مُرة في الطريق أمامي مع كل خطوة أخطوها على صفيح هذا القفر الساخن، وكلما خطوتُ خطوة أشعر بأني ابتعدتُ أكثر عن الوطن على الرغم من أن الوطن كما تشير بوصلة التيه أصبح اليوم أقرب من أمس، ولكن ماذا يعني الأمس أو اليوم؟ فكل لحظة فرح مرثية لمستقبلها الذابل ولكل

حكمةٍ شيخوخة ترى تجاعيدها في المرآة فتحنُّ إلى نضارة الجهل وطيش الطفولة وكأنا خُلقنا لنُشنق بحبل السرة.

أسئلة لم أعرها اهتماماً كانت تخرج من سلّة مهملاتي ساخرة. هل كان علي كارثه محقاً باستخفافه بي؟ ولكن ما له لم يتعظ؟ كانت آخر عبارة قالها لي ساخراً حينما حذّرتُهُ من الذئاب وخديعة الطريق:

«دع الذئاب للذئاب».

لكنه لم يحسب أنه سيكون أولَ ضحيةٍ للذئاب، وربما استنفدت الحياة الحمقاء طاقتها على الصبر فلم تتحمل سخرية بريئة فتظاهرتْ بالجد، فكان علي ضحية تقلباتها الرعناء.

«انظرْ!»

قالت ماريانا وهي تهز ذراعي بقوة لتوقظني من سرحاني. كانت الشمس قد ارتفع قوس منها على الأفق الدامي والذي بدا قريباً جداً. تذكرتُ همنغواي، همنغواي الذي انتحر.. قيل إنه كان يعشق شروق الشمس ولم يفته شروق واحد في حياته، لكنه انتحر.. قالت ماريانا:

«يا ترى هل أصبح الوطن في الجانب الثاني من الأفق أو على جهة الشمس الأخرى؟»

انتبهتُ إلى ما قالته ماريانا فوجدتُ أنها قد لخصت كل ما أفكر فيه، فلم أستطع أن أعلق على كلامها إلا بالصمت الذي لم أكن أجيد تلك اللحظة غيره، وحينما عجزتْ ماريانا عن إخراجي من اكتئابي على الرغم من إلحاح جسدها وتغنجه، دفعتْ ذراعي التي كانت متشبثة بها، وحثت خطاها منضوية في موكب النسوة، فبقيت وحدي في مؤخرة القافلة

كالنجمة العرجاء في نعش الغريب العائد جثمانه إلى الوطن أو نعش إلهٍ مقتول، إلا أني كنت أشعر بسعادة الانفصال عن جسد متعفن بغرغرينا الحنين، حنين تنطقه مشاعر تالفة، غناؤها أخرس وعزفها رنين يدوزنه الاغتراب.

انفصال ماريانا عني وحاجتي للانفلات من دائرة الحزن الغامض جعلاني أتحايل على ذاكرتي وأفكر بهذه المرأة التي هبطتْ علي من كوكب الوهم، وبالسر الذي تحمله. تجمعتْ في خاطري إشارات الحكاية وارتسمتْ أمامي محاورُها، فتذكرت ممانعتها بخلع بنطالها على الرغم من الشهوة المتقدة في جسدها والتي كانت تصرخ طالبة الغوث من ماء جسدي لإطفائها، رغبةٌ أخرجتها من حيائها الأنثوي فبادرتْ بمراودتي.. توسلتْ إلي. تذكرتُ أنها أخبرتني بأن (ماريانا) ليس اسمها الحقيقي بل هو اسمها في الوثائق الدنماركية. تذكرتُ الحديث الذي جرى بيننا أمس حينما قالت بعد إلحاحي بأننا التقينا مرة في بيتها في «مساكن برزه» بدمشق. وعلى الرغم من أني لم ألتقِ بامرأة قطّ خلال فترة الستة أشهر التي قضيتها أنا وجلال مختار في سوريا قبل أن نغادرها إلى الدنمارك، إلا أني رحتُ أقلّب أوراق ذكرياتي لعلّي أعثر على ورقة مدعوكة مرمية في سلة المهملات تكشف لي هوية المرأة اللغز.

وصلنا أنا وجلال مختار إلى باب الطائرة في اللحظات الأخيرة قبيل إقلاعها بسبب برودة وتباطؤ الموظف في مطار طهران وهو يدقق في ورقة (الليزة باص) وبطاقة السفر للتأكد من صلاحيتها وسلامتها القانونية. أُغلق البابُ خلفنا واقتادنا مضيف قميء الوجه بلحية كثة وعينيين صغيرتين يكحلهما رمص أخضر، إلى جوف الطائرة التي كانت تشبه سوقاً شعبية،

فقد امتلأت الممرات بزكائب الجوز والفستق وعلب حلوى (الساهون) وسماورات الشاي الذهبية وبضائع أخرى حملها المسافرون معهم لبيعها في دمشق. حُشرنا في كرسيين ضيقين وسط صف عريض. تعثرنا بأرجل المسافرين الغاضبين لسبب نجهله وارتفعت أصوات تذمرهم. ارتفعت أصوات التكبير والصلوات والشعارات السياسية مع هدير صوت المحرك. ومع إقلاع الطائرة البطيء عمّ صمت مفاجئ على الوجوه الخائفة ليس بسبب رهبة الطيران فحسب بل لأن التحليق في سماء طهران في مثل هذا الوقت كان مجازفة كبيرة، حيث أن المقاتلات الحربية العراقية كانت قد كثفت غاراتها على العاصمة الإيرانية مما يجبر طائرات السفر أن تغير اتجاهها متخذة أقصر الخطوط لمغادرة السماء الإيرانية، فتتجه أولاً شمالاً نحو الأراضي السوفيتية ثم تنحرف باتجاه تركيا فسوريا. وجوه المسافرين الإيرانيين مكفهرة، خائفة. العيون مغمضة والشفاه تتحرك بقراءة أدعية وآيات قرآنية لطرد الخوف. وكلما ارتفعت مني أو من جلال مختار ضحكة ابتهاج بالتحرر من سجن كبير قضينا فيه ثلاث سنوات، صوبت العيون المستفزة أنظارها علينا. كان شعورنا بالانعتاق الذي تأخر كثيراً يطغى على كل شعور سواه كطائرين استطاعا الإفلات من قفص وهما يستحثان ذاكرتيهما على تذكر مفردات الطيران. ارتفعت الأصوات برطانة لا نفهم إلا القليل منها. استرخت الأكف المتشبثة بذراعي الكرسي وانطلقت الألسن من عقالها حينما أعلن في الطائرة عن دخولنا المجال الجوي السوفيتي. نُسي الرب وانشغل الجميع عنه بأحاديث البيع والشراء. رمتْ إحدى الفتيات بتمردٍ وفرحٍ استعراضي غطاء رأسها ناشرة شعرها الأسود الطويل على كتفيها العاريتين فنهرها عجوز كان يجلس جوارها.

ردته ساخرة منه فارتفع صوتاهما. أسرع إليهما مضيف ورجل دين بعمامة بيضاء وانتهت المشادة بارتداء الفتاة حجابها ثانية، وتكررت هذه الحالة عدة مرات خلال ساعات الطيران الخمس.

فُتح بابُ مطار دمشق الخارجي واندلقنا على الرصيف مثل وليدين عاريين أو لقيطين ينتظران رحمة من المجهول. مسافران بهيئة رثة يقفان على الرصيف وهما يتلفتان بحيرةٍ وتوجسٍ من ضياع يتربص بهما. لم يتقدم نحونا أي من سائقي سيارات الأجرة الذين يتملقون عادة المسافرين حيث لا أحد كان يصدق بأننا مسافران بلا حقائب وبمنظر بائس يثير الشفقة.

«ماذا نفعل؟»

«.........»

«..........»

«ماذا نفعل؟»

هجمت علينا ذئاب الأسئلة لتحول الأرض مرة أخرى إلى قفصٍ آخر. أسئلة استيقظت فجأة وكأن فترة انعتاقنا كانت خمس ساعات فقط قضيناها بشم الهواء في ممر جوي خارج زنزانة الأرض.

«إلى أين؟ وماذا سنفعل؟ وكم ستكفينا الخمسون دولاراً؟ أسبوعاً؟ أسبوعين؟ وماذا بعدها؟ هل سنجد عملاً؟ وأية مهنة نستطيع مزاولتها؟».

«المنفى كالشعر تماماً فهما مهنةُ من لا مهنة له».

قال جلال مختار محاولاً كعادته طرد الضجر بالثرثرة والهرب من الواقع إلى عزاء الشعر. ولكي يعطي كل منا للآخر جرعة إصرار للتحمل

والتحدي، نفضنا رأسينا مثل قطين مبتلين بحركة عابثة كي تتطاير الهواجس الكئيبة التي استبدت بنا ونحن في بداية الطريق. أشعلنا سيجارتين وقرفصنا على الرصيف مسندين ظهرينا إلى الجدار. كان كلّ منّا يرى في وجه صاحبه غجرياً يحمل أطلاله في خرجٍ وحينما يجلس للراحةِ يخرجها، ينثرها أمامه كحجارة الودع لكي يقرأ فأله ويفتش عما يخبئه الغيب.

خمسون دولاراً فقط كان بحوزتنا واسم مقهى دمشقي يرتاده العراقيون. هذا كل ما في خرجنا من متاع في هذه الرحلة التي لا نعرف أين ستصل بنا.

كان الوقت عصراً حزيرانياً ومقهى الروضة برطوبة أرضيته المرشوشة بالماء تشيع خدراً في الأجساد المتعبة واسترخاءً في النفوس المتوترة. بدأ الرواد يتوافدون فرادى وجماعات فتشكلت دوائر صغيرة حول الطاولات القديمة. راحت تتسع حتى تماست حدودها. كان أغلب رواد المقهى من العراقيين بسحناتهم السمر ووجوههم الحزينة حتى حينما يضحكون. جلسنا أنا وجلال مختار في زاوية القسم الصيفي من المقهى، نتفرس في الوجوه لعلنا نتعرف على صديق قديم أو حتى عدوٍ تمحو الحاجة واللقاء الحقد عليه فنأخذه بالأحضان. دخل المقهى بعض ممن التقينا به في إيران أو مر بنا في طريق رحلته. تطلعنا بلهفة إليه مادين أعناقنا لنكون في منتصف الصورة لعله يتطلع إلينا. يخطو نحونا ويتوقف عند طاولتنا لكنّ عينيه كانتا تمسحان فضاء المشهد وتزوغان عنا فيتخذ مجلساً بعيداً أو يعود خارجاً من المقهى. لعل ذلك الجالس في الزاوية الأخرى من المقهى تقع نظراته الشاردة علينا فينهض، يترك مكانه ويتجه نحونا مرحباً بالقادمين الجدد،

إلا أن هذا وذاك كانا يمران من طاولتنا متجاهلين أو ناسيين وجهينا ثم يعود كل منهما إلى دائرته منشغلاً بلعب النرد أو في نقاش سياسي. مر الوقت سريعاً وتفرق رواد المقهى مغادرين كما دخلوا وبدأ عامل المقهى يجمع الكراسي متثائباً إيذانا بانتهاء يوم عمله. غادرنا يائسين نبحث عن فندق قريب من المقهى نقضي فيه ليلتنا لعلنا في الغد نفلح في اصطياد صديق أو عدو.

دخل حاتم الحلاق من الباب متفحصاً الوجوه كأنه يبحث عن أحد على موعد معه، وحينما رآني ركض فاتحاً ذراعيه وارتفع صوته مرحباً بي بشتائم بريئة. أدرك ما نحن فيه من حيرة بفطنة خبير بالأمر فقد مرّ هو بالتجربة نفسها. دعانا للذهاب معه مدعياً بأنه يبحث عن صديق يقاسمه إيجار الغرفة. وحينما سألَنا عن حقائبنا، لم يجد إجابة غير نظرة صمت هازئة. انقلب على الكرسي وهو يضحك مجدّفاً، شاتماً القدر والغربة و....

توقف الباص في آخر محطة له في حي الطبالة. انعطفنا مشياً في شارع ترابي طويل. في منتصفه توقف حاتم عند دكان صغير للعطارة واشترى قنينة عرق وربطة خبز. عند نهاية الشارع أو حي دويلعة يقع بيت خرب بجانبه أرض واطئة لرمي الأزبال والنفايات. دفع حاتم الباب فكاد ينخلع بيديه، هناك غرفة صغيرة بسقف واطئ وجدران تعرت من كلسها. في أعلى الجدار نافذة صغيرة يكاد الهواء الداخل إليها لا يكفي لثلاثة أنوف.

في الأيام القليلة اللاحقة استطاع جلال مختار أن يجد عملاً في محل لغسل الملابس وكيّها في الحي نفسه مقابل محل الحلاقة التي يعمل فيه حاتم، أما أنا فكنتُ أخرج يومياً باحثاً عن عمل وأعود خائباً حيث ومنذ البدء خاب ظني من أن أجد عملاً في صحيفة أو مجلة فقد وجدتُ

الكثيرين ممن هم أكثر كفاءة مني يحلمون بمثل هذا العمل ولا يحصلون عليه. درتُ على جميع الفنادق علّها تحتاج إلى عامل تنظيف، فكنت في كل مرة أعود وفي جعبتي كلام جميل أسمعه من أصحاب الفنادق ربما بسبب منظري الذي يثير الشفقة:

«لو يوجد عمل شاغر، تكرم عينك، على رأسي خيّو..»

جاءني فالح حسن وأخبرني بأنه وجد لي عملاً في المكان الذي يعمل هو فيه. وحينما سألته عن طبيعة العمل ومكانه لم يخبرني مكتفياً بإشارة تحذير أو تأنيب تذكرني بأني في وضع لا يسمح لي بالاختيار وعلي قبول أي عمل يعرض علي بلا تردد أو بطر، فوافقته معتذراً ومؤنباً نفسي. كان الوقت ضحى حينما انعطفنا في شارع عريض تنتشر فيه البنايات التي يوحي منظرها بأنها دوائر ومؤسسات حكومية أو أمنية حيث وقف عند كل بوابة رجل بلباس مدني يحمل رشاشة قصيرة وعيناه تزوغان وتتفرسان بوجه من يدخل الشارع أو يخرج منه. توجستُ خيفة فسألتُ صاحبي عن وجهتنا وعن مكان العمل، فقال:

«في الجوقد».

وحينما وجدني أتطلع إليه مستغرباً من كلمة لم أسمع بها من قبل ولم ترد في قاموس اللغة العربية، قال مصطنعاً ثقة مهزوزة:

«أعني مقر الجبهة الوطنية والقومية الديمقراطية».

وخزني شيء في داخلي. ترددتُ في الدخول إلى المبنى الذي تلوح عليه السرية الغامضة والحيطة المفتعلة. سار فالح حسن أمامي بخفةٍ ودراية بدهاليز المكان مصطنعاً ثقة توحي بالسطوة والهيبة. رفع يده محيياً الحارس بحركة دبلوماسية تفتعل الوقار ثم التفت إليّ يحثني على الإسراع

بإشارة تدل على التعالي. ممر طويل وعلى الجانب منه إلى اليمين غرفة واسعة، تضم صوفتين وثيرتين وبضعة كراسٍ على جنبي مكتب أنيق جلس وراءه رجل تجاوز الأربعين قليلاً. عرّفه إلي فالح بلباقة:

«الرفيق أبو وثبه».

نهض ماداً يده إلي شاداً يدي بقوةٍ تفتعل الود، ثم قال بثقة موجهاً كلامه إلي:

«حدثني الرفيق فالح عنك كثيراً».

وخزتني كلمة (رفيق) لما تثيره في نفسي من نفور فطري، فهززتُ رأسي بخجل. تلعثمت الكلمات في فمي مكتفياً بابتسامة غير واثقة وبتواضعٍ رقلق وربما خوف. أشار بيديه إلينا للجلوس على الصوفة التي تقع إلى يمينه. دخل شيخ محني الظهر. وضع كأس الشاي أمامي بذلّ. نطّت من نمي بعد تلعثم كلمة شكر جاءت مرتفعة أوحت بمدى ارتباكي، فالتفت نالح إلي مربتاً بيده على ركبتي التي كانت تهتز بقلق دونما شعور مني. شرب فالح كأس الشاي دفعة واحدة ثم اعتذر مني لشغل عليه إنجازه. دقائق وامتلأت الغرفة بوجوه عراقية، من بينها وجوه كنت قد رأيتها وتحدثت معها قبل ذلك في مقهى الروضة، الشاعر (ش)، القاص (ج)، لصحفي (ع)، السياسي (ك)..، دخل رجل طويل القامة بوجه حليق وشاربين يبدو أنه قد قضى وقتاً طويلاً بتشذيبهما وصبغهما. امتلأت الغرفة برائحة عطور فاخرة. نهض الرفيق أبو وثبة احتراماً فنهض الحاضرون نهضتُ مدفوعاً بغريزة القطيع. حدق الرجل في وجوه الحاضرين، هازاً رأسه، ماطاً شفتيه. لاطفَ بعض الحاضرين بوضع يده على كتفه بترفع ونشوة فانطلقت كلمات تملق من البعض، ثم أشار إلينا للجلوس وغادر

الغرفة. بعد بضع دقائق عاد إلى الغرفة ثانية فنهضنا، لكنه تجاهلنا متوجهاً إلى أبي وثبة الذي نهض مصغياً إلى ما سيقوله. سأله عن العدد الجديد من مجلة (نداء الكادحين)، عن موعد صدوره وعن صرف المكافآت للرفاق وللكتّاب فأجابه أبو وثبة بلباقة. غادر الغرفة فأنخنا ثانية. عند الساعة الثانية ظهراً بدأ الرفاق يغادرون المكان، دخل فالح الغرفة وأشار إلي لأتبعه. حينما خرجنا من المبنى سألته عن العمل وطبيعته فلم يجبني واكتفى بتمتمات غامضة، مؤملاً إياي بمعرفته لاحقاً.

في اليوم التالي حدث الشيء نفسه. الغرفةُ نفسها، الرفاق أنفسهم، الحديث نفسه، الحركات، الدخول، الخروج، شيء واحد جديد حيث أن الجميع صار يناديني بـ (الرفيق). حاولت أن أعبر عن امتعاضي لهذه الكلمة فوجدت أن الشاعر (ش) والقاص (ج) والصحفي والسياسي كلهم يشاركونني الشعور إلا أنهم متواطئون في ما بينهم. دخل الرفيق وخرج مرات عدة. نهضنا وجلسنا ودخّنا وارتشفنا عدداً كبيراً من كؤوس الشاي وتحدثنا في الأدب والسياسة وروينا نكاتٍ بذيئة. ضحكنا وبكينا بصمت. مرّ فالح في الممر فخرجتُ إليه. حاول أن يتشاغل عني إلا أني سحبته من يده منزوين في نهاية الممر. بححتُ له بضجري من بطء مرور الوقت والفراغ. سألته عن العمل وطبيعته ومتى ينبغي علي البدء فأجابني ساخراً من جهلي باللعبة:

«أنت الآن عليك أن تحسب نفسك قد باشرت العمل منذ يوم أمس».

وحينما طالبته بتوضيح لكلامه الغامض، أجابني:

«عملك هو أن تجلس في الغرفة وتشرب الشاي».

ثم أضاف بلهجة لا تخلو من الأمر:

«عليك أن تنهض كالبقية احتراماً كلما دخل الرفيق أبو فاروق!»

ثم أشار إلى ياقة قميصي المتسخة باستصغار:

«اشترِ قميصاً جديداً!»

وبعد لحظة صمت، استدرك:

«أستطيع أن أعطيك بعضاً من قمصاني».

وحينما رأى على وجهي نظرات استهجان وقرأ هواجسي بعدم تصديق ما يقول، قال كمن يتذكر أمراً هاماً:

«ربما سيُطلب منك كتابة مقال أدبي أو خاطرة وطنية للجريدة التي تصدر في نهاية الشهر، أو ربما ستساعد الرفاق في الأرشيف».

وغادر قبل أن يسمع رأيي.

لم أعد إلى الغرفة بل اتجهت إلى الباب الخارجي. وحينما أصبحت في الشارع الرئيسي، تنفستُ بعمق ثم أخرجت الهواء ببطء من رئتيّ حتى شعرتُ بأني قد أفرغتهما تماماً من كل السموم والغازات العفنة التي استنشقتها في هذا المبنى الموبوء.

يئستُ من الحصول على عمل فاكتفيت بالسقط الذي يخلفه لي حاتم الحلاق. كنت أخرج صباحاً، انسل إلى الباص خلسة وأقضي أطول فترة ممكنة جالساً في المقهى. وحينما يغادر العراقيون ويحاصرني أبو كمال بإلحاحه القاسي مذكراً إياي بأني لم أشرب شيئاً، كنت أخرج إلى الشارع، أتوقف عند المكتبات أو أقضي وقت الظهيرة في السينما أشاهد الفلم الواحد مراتٍ عدة، أو أذهب إلى متنزه مهجور أجلس تحت شجرة تبادلني الغربة، وأغفو.

أخبرنا حاتم الحلاق بنيته السفر إلى الدنمارك بعد أن استطاع تدبير ثمن البطاقة من صديق كريم. وبعد أسبوع سافر حاتم فلم يبق في الطريق سقط أقتات عليه، حيث أن جلال مختار كان لا يستلم من أجرة عمله غير ما يكفي سندويشة فلافل، فقد كان يدفع في أغلب الأوقات تعويضات لأصحاب الملابس التي كان غالباً ما يترك المكوى عليها فتحترق أو أنه يسلّمها إلى غير أصحابها.

وقفتُ عند باب المقهى مفتعلاً انشغالي بقادمٍ لم يصل بعد، وقد كنتُ أنتظر (لا أحدَ) أعرفه، يدعوني إلى مجالسته ليدفع عني ثمن كأس الشاي. كان عصراً خريفياً بارداً ولم أكن أرتدي غير قميصٍ صيفي متهرئ الياقة، وحينما يئستُ من قدومه واشتد البرد دخلت المقهى أبحث عنه لعله قد جاء قبلي أو أنه دخل بغفلة مني. انضويت في دائرة مفلسين اعتادوا التحايل على أبي كمال نادل المقهى اللجوج واعتاد عليهم. كان النقاش يدور كعادته في دائرة السياسة ووضع أحزاب المعارضة والأدب والرحيل إلى بلدان اللجوء الشمالية، وحينما لم تعد الإعادة مستساغةً وانتهى الكلام، تثاءب البعض وغادر المكان ولم يبق إلا أنا وشاب لم يسبق لي أن التقيتُ به. نهضتُ من الكرسي فرفع رأسه باتجاهي:

«وين؟»

توقفتُ مستهجناً السؤال، فارتفع صوته ضاحكاً، ثم أشار إلي للجلوس ثانيةً، حاولتُ أن أعتذر إلا أنه سبقني بلباقة:

«لن أتركك اليوم تذهب».

ثم أضاف:

«لي حديث معك».

ابتسمتُ ساخراً لعله يمزح أو أنه توهمني شخصاً آخر لكنه نهض ماداً يده إلي مصافحاً، معرفاً بنفسه بطريقة لا تخلو من المودة والظرف:

«أمجد صافي».

مددتُ له يدي وقبل أن أنطق باسمي نطقه هو نيابة عني، فجلستُ مرتبكاً منتظراً أن يبدأ حديثه. نادى نادل المقهى وطلب كأسين من الشاي. ارتشفته فشعرتُ برغبةٍ في التقيؤ، استطعتُ إخفاءها ورحتُ أصغي إلى ما سيقوله. ذكر أشياءَ كثيرة يعرفها عني فشعرتُ بالخجل لأني لا أعرف أي شيء عنه، بل إني لا أتذكر قد رأيته قبل هذا اليوم. ذكر أمامي أسماء أصدقاء مشتركين بيننا. أشار إلى مسائل خاصة بي فأدركتُ بأنه ليس واهماً، بل لابد أنه كان يترصدني واستطاع أن يجمع هذا القدر من المعلومات عني فاستيقظتْ مخاوفي واستنفرتْ شكوكي. حاولتُ التهرب منه بأية حجة إلا أنه أدرك احتمال سوء الظن فراح يتحدث عن نفسه بوضوح مشيراً إلى الأماكن التي أقام فيها منذ خروجه من العراق عام ١٩٧٨ فاتضحتْ لي صورة عامة عنه وعن انتمائه السياسي الذي لم يكن يخفيه فتحدث عن التحاقه بحرب الأنصار في كردستان، وعن الرفاق الذين عرفهم هناك والذين استشهدوا في معارك كان يذكر في حديثه تواريخها وأماكن حدوثها. قطع حديثه فجأة كمن يتذكر أمراً مهماً وسألني:

«ما رأيك أن نكمل حديثنا في البيت؟»

لم أكن راغباً في الذهاب معه ولكني حاولتُ أن أجد عذراً مقبولاً فتلعثمتْ فطنتي، فكرر السؤال مضيفاً بمودة لا تخلو من التوسل:

«لتكن ضيفي الليلة!»

وحينما وجدني صامتاً متردداً، ولكي يقطع عليّ تحايلي بإيجاد عذرٍ

للتملص ورفض دعوته، هبّ ناهضاً من كرسيه ماداً ذراعه نحوي فانقا
خلفه بلا حول ولا إرادة. بعد ذلك أقنعتُ نفسي بقبول الدعوة معلا
إصراره على استضافتي لأمر تنظيمي، حيث صرح لي بوضوح بانتماا
المستمر إلى الحزب الشيوعي، بل راح يدافع عن مصداقية رأيه، محاو
تفنيد آراء المنشقين عن الحزب.

بيت صغير لكنه يختلف عن كل بيوت العراقيين المقيمين في دمشق،
فهو نظيف إلى حد مبالغ فيه. صالة للجلوس صغيرة تتوسطها طاولة م
الفورميكا نظيفة تحيط بها كنبةٌ وكراسٍ وجهاز تلفزيون، وفي ركن الصالة
انتصبت مكتبة، ومكتب صُف عليه بعناية بند ورق أبيض وكـأس يحتوي
على مجموعة أقلام، وكرسي دوار صغير. في الصالة باب يُفتح على غرفة
نوم صغيرة يتوسطها سرير لشخصين مغطى بشرشف زهري اللون مكوي
ونظيف، وعلى أحد جانبيه دولاب صغير عليه قنينة عطر ومرآة صغيرة.
سألته إن كان وحده يسكن البيت، وكنتُ أقصد بوضوح إلى كونه
متزوجاً، فالبيت يوحي بأدق تفاصيله على وجود بصماتِ أنثى إلا أنه
تجاهل سؤالي وكأنه لم يسمعه فأدركتُ بأنهُ لا يودّ الحديث عن أموره
العائلية الخاصة. ذهب إلى المطبخ لإعداد الشاي بينما انشغلتُ بتصفح
الكتب والمجلات. لفتت نظري الإشارات والهوامش المكتوبة على
حواشي الصفحات، وإهداءات المؤلفين إليه فشعرتُ بطمأنينةٍ بل
إعجاب. ارتفع صوته في المطبخ مردداً أغنية ناعمة:

«يمّه القمر ع الباب ضوَّ قناديلو

يمّه أرد الباب والا أناديلو

أناديلو

يمّـه»

جاء بصينية الشاي وهو يعيد كلمات الترحيب [illegible] الشاي بحذرٍ فارتفعتْ أمعائي وكدت أتقيأ، وا[illegible] أستطع إيقافه ماسكاً بطني بكلتا يديّ. نهض واقفاً خلفي [illegible] وحينما توقفتُ عن السعال سألني إن كنت مريضاً فسقطتْ حيطا[illegible] كتماني فبحتُ له:

«منذ ثلاثة أيام وأنا لم أذق أيّ شيء».

عرفَ السببَ فاكتأبَ وتلعثم صوته بسبب العبرة التي تكسرتْ في صدره، وظهرتْ على وجهه علامات الشفقة حتى ترقرقت في عينيه دمعتان كحلتا جفنيه، مسحهما بطرف منديل ورقي بحركة رقيقة. تطلعتُ إليه من بين دموعي التي انسابت بسبب السعال والاختناق:

«يا إلهي أية رقّة يحمل هذا الكائن الذي أكاد أرى روحه تتحرك خلف جدار جسد شفاف، بل أي ملاك هبط عليّ هذه الساعة!»

شعرتُ بتأنيب ضمير لسوء الظن الذي قابلتُ به دعوته. هرع خارجاً من البيت بعد أن أخبرني بأنه عائد بعد قليل فخمنتُ وجهته. عاد يحمل أكياساً تحتوي على بطاطة مقلية ودجاجة مشوية وخضروات وفواكه وعلبة سجائر. وضعها على الطاولة وراح يتأملني بحزن وأنا أنهش بلا خجل فخذ الدجاجة كضبع جائع. ذهب وعاد إلي بكأس ماء ثم تركني وحدي وغادر الغرفة مفتعلاً انشغاله بالبحث عن شيء ما أو غسل الصحون في المطبخ. ارتفع صوته مرة أخرى بأغنيةٍ عراقية شجية:

«غريبه من بعد عينج يِـمّه

محتاره بزماني

يا هو اليرحم بحالي ييمّه

لو دهري رماني»

أخبرني بأن الحمام جاهز إن كنت أرغب في الاستحمام. ربما شاهد فتلات الوسخ على رقبتي وشعري الطويل. رحبتُ بالفكرة وقد سقط جدار الخجل بعد أن عرضتُ أمامه كل أوراقي التي كنت أخفيها. وقفتُ تحت الدش تاركاً رشاش الماء الساخن يندفع بقوة على وجهي مغمضاً عيني فارتختْ عضلات وجهي التي شنّجها الغضب وابتسامات المجاملة التي حفرت أخدوداً عميقاً في مشاعري. كنتُ أتمنى لو أن الزمن توقف عند هذه اللحظات. استرخاء ووقوف تحت شلال ماء يطفئ جمر التوتر. عزلة عن العالم في مكان لا تتجاوز مساحته المتر المربع الواحد لكنه نافذة واسعة مشرعة على بهاء الكون، وهبوط بلا رقيب نحو قاع الروح. حاولتُ أن أبدي ثقة بالنفس أوحي بها لمضيفي فارتفع صوتي بالغناء. طرق أمجد الباب فجفلتُ من غفوتي. سألني إن كنتُ أرغب بأن يساعدني بتدليك ظهري. ضاق الفضاء فجأةً وتدحرج الطائر في نشوة تحليقه كما أصيب بحجر وبسرعة خاطفة هبط على الأرض متقلباً، مهيض الجناح. ارتبكتُ لهذه الرسالة الملغومة، وعلى الرغم من أني أجبته بثقة شاكراً له لطفه، إلا أني تيقّنتُ بأن هذه الدعوة ليست بريئة وستتحول الدجاجة التي أكلتها للتو زقوماً في بطني. عادت إلي الرغبة بالتقيؤ ولكن هذه المرة ليست بسبب الجوع، واستيقظتْ في داخلي كوابيس الطفولة، صور اللوطيين ولغاتهم السمجة وإشاراتهم الفظة بوقاحة مفرداتها وشفراتها المفضوحة التي كانت تجرح براءتنا بمطاردتهم لنا، في الشارع، في

المدرسة، على شاطئ النهر، في دور السينما، في المعسكر، في [illegible] الوحدة العسكري حيث أبو الليل الذي قضى خمسة وعشرين عاماً و[illegible] خدمته العسكرية فقضاها بين الهروب والسجن. كان يجلس في ركن غرفة السجن الضيقة وقد خلع ملابسه فظهر الوشم على صدره وذراعيه فخوراً بكرشه وعضلات زنديه. يأمر من يشاء مهدداً بالاغتصاب كل من لا يطيع أوامره. كان يخبئ دائماً بين إصبعين من أصابع كفه شفرة حلاقة، لا يتوانى أن يستخدمها متى شاءت نزوته بل كان يستخدمها في بعض الأحيان بتشريط جسدهِ في حالةِ هستيريا وغضب، ويخفيها تحت لسانه كلما داهم الحرس غرفة السجن للتفتيش. كان حراس السجن ببنادقهم وسطوتهم يخشونه ويتجنبون شره. في مديرية الأمن حيث كان الاغتصاب سلاح الجلادين الماضي يشهرونه بوجه من تسول له نفسه بالمماطلة وعدم الاعتراف.

«سيدي هذا شوعي، منيوك، خليني أنيجه».

وبلهجة وإشارات أكثر سوقية:

«سيدي هذا ما يعترف إذا ما أنيجه».

فيجيبه سيدهُ الجالس خلف مكتبه الأنيق ممسداً رأس هراوةٍ براحة كفه اليمنى، يولجها في كفّه اليسرى ويسحبها ببطء منتشياً، ويظل يولج الهراوة ويسحبها وهو يحدق إلى الوجه الشاحب، الغائر العينين الذي لا يدري كيف يعترف بذنب لم يرتكبه. في داخله يتجمع خوف الكائن كلّه في لحظة من كلمة ينطقها عبد جبان:

«لا، لا، مو هسه، راح يعترف، هو خوش ولد، شريف، ابن عايله شريفة، أنا أعرفه».

«تعترف؟ ها؟»

ثم ترتفع وتيرة الصوت تدريجياً:

«ما تعترف، ها، منيوك، أبو العيوره..»

«............»

«ها!؟ يبدو إنك مشتهي، ها؟»

«....................»

«أبو العيوره، تسوي روحك رجّال، إنت مشتهي ومستحي، ها؟»

«................»

يصرخ إلى الحارس الواقف عند الباب:

«عبيد! تعال! تعال نيجه!»

فيندفع عبيد كعاصفة رملية، وهو يسحب سحّاب سرواله، يقف أمام الوجه الشاحب الجالس مقيداً على الكرسي، ويدلق له قضيبه المنتصب ماسكاً الرأس الدائخ من ناصيته:

«شوفْ، منيوك، إذا ما تعترف أشق طيزك».

يقول وهو يقلقل قضيبه المنتصب. يختنق الهواء. يرتبك الكون. تتهاوى مجراته على تلال من الغائط. يبدو وجه الله وهو يطلّ على المشهد كئيباً، أصفرَ، ممصوصاً كوجهِ قوّاد ريفي، يرتفع الرأس الهاطل على الصدر العاري قليلاً ثم ينطق مخذولاً:

«سأوقع على ما تريدون».

يشير الضابط بيده إلى عبيد فينسحب العبد وهو يرفع سحّاب بنطلونه، يقدم ضابط الأمن إليه استمارة التعهد وهو يقهقه بصوتٍ عاهر، منتشياً كأنه قد نال ما يريده من جسد متخشب أو جثةٍ متعفنة. يوقع قبل أن يقرأ محتويات الاستمارة:

«قرار ٢٠٠، أتعهد بعدم مزاولة العمل السياسي....»

ثم يضيف في داخله:

«وعدم مزاولة الحياة».

يُحل الحبل الرابط جسده إلى الكرسي. يسقط على وجهه. ينهض بصعوبة. يسير نحو باب الغرفة متعثراً، فارجاً ساقيه وكأنه يشعر بألم في دبره من اغتصاب لم يحدث:

«هل أغتصبتُ أم لا؟»

لم يعد يدري إن كان فعلاً قد أغتصبَ أم كان مجرد تهديد. يغادر الغرفة ذليلاً، مكسور العين تودعه قهقهات شامتة يطلقها ضابط الأمن. في الممر يلتقي بعبيد فيتخيله قضيباً متعظاً يرتدي ملابس إنسان ويمشي على قدمين. يشيح بوجهه عنه باشمئزاز. يتطلع إليه عبيد بنظرات مبهمة لم يعرها اهتماماً. قبل الخروج من الباب الرئيسي لمديرية الأمن يسمع صوتاً، يناديه فتنقبض روحه ويتحسس ثقل جسده والجروح الملتهبة:

«استاد.. استاد»

يلتفت فيرى عبيد مهرولاً نحوه، وحينما يصل إليه يقول بسخرية وغباء:

«استاد.. صحيح الشاعر الفرنسي رانبو كان ينيّج؟»

يتطلع إلى عينيّ عبيد فيجد فيهما صورة فأر أجرب يلعق دماً من شريان

نازف. يصمتُ. يود أن يبصقَ عليه إلا أنه يتذكر التعذيب والأيام السبعة التي قضاها بين الحياة والموت فيرفع رأسه إلى السماء ويمطرها بالبصاق.

رجال بشوارب كثة وعضلات مفتولة، خوف أهلنا علينا وقلقهم كلما تأخرنا في العودة إلى البيت، صراخ الأطفال وراء صبي مكسور العين وغمزاتهم وإشارات أصابعهم النزقة، هروب الصبي والصبيان يلاحقونه ويصرخون بكلمات بذيئة، نظرات سمير النداوي مدرس الرياضة وهو يتطلع إلى سيقاننا ومؤخراتنا بطرف عينيه خلسة أو جهاراً، عصام... الطالب النزق الذي اتخذه سمير النداوي خليلاً له، فكان شرساً، وقحاً، بذيء اللسان ولم يكن من بيننا مَنْ يستطيع أن يرده فوراءه يقف مدرس قاس يدافع عنه ورجال آخرون كانوا يقفون له عند باب المدرسة متكئين على دراجاتهم الهوائية أو عربات بيع الباقلاء المسلوقة وقت انتهاء الدوام، يتملقون لعصام ووجوههم شاحبة وعيونهم ذابلة تحت أجفان مرتعشة، راجين وصالاً منه فيختار هو أشرسهم. لم تكن شراسته وبذاءة لسانه ما يجعلنا نخاف منه، بل إنه كان بإمكانه أن يخلق إشاعة عن أي صبي تذهب بين الطلاب كالهشيم في النار وربما تصل إلى أهله فتصبح فضيحة بجلاجل.

«بجغ».

مفردة ملغومة بالشبهات كنا نسمعها من الكبار، ينطقونها وهم يتلمظون وأعينهم تزوغ بقلق شيطاني وأيديهم تدلك بقوة أعضاءهم الجنسية التي يبدو انتصابها واضحاً تحت الدشاديش المبقعة بالسوائل المتجمدة.

طرق أمجد باب الحمام ثانية فأجبته بصوت واطئ، ولكي أسد عليه طريق إلحاحه أجبته:

«خلّصت، أنا خارج».

خرجتُ من الحمام متحفزاً لخوض معركة الشرف حتى لو تطلب مني ذلك الاستبسال أو الهرب. المهم أني سأحافظ على بكارتي التي لم يفضضها عتاة المجرمين واللوطيين. انقبض صدري أكثر حينما وقع نظري على حبل الغسيل حيث رأيتُ بنطلوني منشوراً عليه، لكن وبلحظات قليلة تغير الموقف. كان أمجد صافي يجلس واضعاً الطست بين ساقيه وقد انحسرت دشداشته البيضاء عن ساقيه وبحركة أنثوية كان يغسل قميصي. سقطت هواجسي بل تغير مجراها فشعرتُ بخوف أقل مما كنت عليه قبل لحظات.

نفض أمجد يديه من الرغوة. ناولني بيجامة نظيفة واستأذن ليدخل الحمام. جلستُ على الكرسي شبه عارٍ وملتفاً بمنشفةٍ كبيرة. ارتسمت الصورة واضحة أمامي فقررتُ بأن أكون لطيفاً معه ودون أن أجرح مشاعره الرقيقة، سأقضي معه ساعة أو ساعتين لحين تجف ملابسي ثم أودعه وكأني لم أكتشف أمراً. أخرجتُ ديوانَ شعرٍ مهدى إليه ورحت أقرأ بصمت دون تركيز. خرج أمجد من الحمام وهو يصفر لحنا ملتفاً ببرنس زهري اللون يكشف عن ساقين ملساوين وصدر بلا زغب. كان يبدو عليه بوضوحٍ قلقٌ وارتباك.

مسحَ الطاولة بحركة تلفت الانتباه فتأكد لي من خلال أنوثته الواضحة بأنه شاذ جنسياً، ولكن كرمه وطيبة قلبه ورقة لسانه أجبرتني على احترام وضعه محاولاً أن لا أكون فظّاً معه وناكراً للكرم الذي أبداه معي. وضع صحن فواكه وخضار وسلطة. فتح دولاباً صغيراً وأخرج منه قنينة عرق، وضعها على الطاولة وهو يتأرجح بحركة تفتعل الثقة بالنفس. صبّ كأسين، قدّم واحدة لي ثم رفع كأسه:

«بصحة تعارفنا».

شعرتُ بالملل بل القرف من طريقة إغرائه الساذجة كالمبالغة بإخراج لسانه حينما يمضغ حبة عنب ولحسه شفته العليا أو طريقة إدخال إصبع الموز في فمه، فأرسلتُ إليه إشارة واضحة بأني أدركت غايته. استلم إشارتي بفرح فهبّ من كرسيه المقابل لي ثم جلس على كرسي لصقي. ملأ كأسي مرة أخرى وقدمها إلي. ارتشفتُ منها قليلاً بحذر. وضع حبة عنب في فمي فمضغتها كاتماً ضحكة ساخرة من وضع تلبسني دونما شعور مني، شعور برجولةٍ صلبة وفحولة مستبدة لا تخلو من رغبة سادية. استقبلها أمجد بفرح طافح فازدادت ملامح أنوثته وضوحاً وتذللاً. حاول أن يقبّل شفتي فأدرت عنه وجهي وطبعتُ على خده قبلة باردة، خالية من رغبة جنسية، إلا أنه أصر على تقبيلي من فمي فقبلته بنفور فأطبق فمه بقوة ماداً لسانه في فمي فشعرتُ بقشعريرة وانكمش جلدي حتى شعرتُ بأنه على وشك أن يتشقق. صعد تأثير العرق إلى رأسي وشعرتُ بدوار. نهضتُ من الكرسي وتمددتُ على الكنبة ففهم الأمر استجابة مني. جلس عند خصري وانحنى يفك أزرار البيجامة ويمسد شعر صدري. قبّل عنقي فتجمّدتُ متشنجاً. شعرَ بامتعاضي وتململي فتدارك الأمر. هبط برأسه نحو صدري لاحساً حلمتي بطرف لسانه فاركاً الأخرى بين سبابته وإبهامه مصدراً أنيناً خافتاً وزفرات حارة. رفعتُ جسدي قليلاً واضعاً ذراعيّ تحت رأسي وأنا أتطلع إليه تارة وتارة أخرى أغمض عيني متخيلاً أنثى تخرج من مخيلتي بنهدين كبيرين تلتصق حلمتاهما بصدري. شعرتُ برجولة شامخة، لكن القلق الذي انتابني جعل يديّ لا تستقران على وضع واحد فكأنهما تحاولان إمساك الهواء كيلا أسقط إلى قاع بئر بلا قرار. أحطت خصره

بذراعي، فمد يده ماسكاً يدي بقوة ثم أنزلها إلى ردفيه، وحينما توقفتْ يدي عند حدود عجيزته ممانعة من الغلو في المضي نحو الأسفل دفعها أكثر بقوة ونفاد صبر لتستقر في الشق. لا أدري ما الذي دفعني إلى تحريك أصابعي حركة خفيفة في شقّه فتأوه ناشغاً بنشوة رافعاً رأسه نحوي مسبلاً عينيه وابتسامة شكر وتوسل على شفتيه اللتين ابيضتا وجفتا وهما ترتعشان. عاد ثانية يمسح صدري كله بشفتيه فدفعته نحو الأسفل. هبطت شفتاه إلى أسفل سرّتي ببطء، لاحساً أطراف شعر عانتي مدخلاً الشعرات الطويلة على خصيتي في فمه، فارتعش جسدي بذبذبات خفيفة. مسكَ قضيبي بين أصابعه بحنو لاحساً العصب البارز الصاعد من خصيتي، طائفاً بطرف لسانه على حز الختان، ثم أدخله إلى جوف فمه وأطبق عليه بقوة محركاً لسانه وفكيه. انتصب قليلاً في فمه، أخرجه مبللاً فراح يلحس لعابه وقطرات المذي، ثم أعاده إلى فمه. لم أستطع الاستمرار بمتابعة الفيلم المعروض على شاشة مخيلتي فقد هربتْ أنثاي بصدرها المكتنز وشعرها الطويل. تطلعتُ إلى وجه أمجد صافي، كانت موجات الهوس تتلاطم فيه وكأنه يحاول اغتراف أكثر ما يستطيع من متعة، متشبثاً بنتوء صغير كأنه اللوح الذي يتشبث به غريق شاهقاً بعمقٍ كي يملأ رئتيه بهواء يدخره إلى لحظات الاختناق القادمة. شعرتُ ببرودة تنخر عظامي وامتعاض يخز ضميري بأسياخ حديد. شعر قضيبي بندمٍ كأنه أدرك ما يدور في ذهني فتقهقر منكمشاً. أخرجه من فمه. حرّكه حركاتٍ سريعة كي يوقظه من غفوته المفاجئة. حاولَ أن يستنهض همّته، لكنه كان ثابت الرأي بيقين من أدرك شناعة فعلته. سحبتُ إحدى ساقيّ من تحت جسد أمجد حتى التصقت ركبتي برأسي، وبنفاد صبر وامتعاض ركلته بخاصرته. سقط

أمجد عن الكنبة وارتطم رأسه برجل الكرسي. هرعتُ إلى الحمام وأفرغت ما في معدتي دفعةً واحدة. شعرتُ بدوار شديد وغامت الرؤية فأسندتُ ظهري إلى جدار الحمام متمسكاً بأكرة الباب وشيئاً فشيئاً جلستُ على الأرض الرطبة، وكأعمى رحتُ أتلمس الفراغ حتى مسكتُ خرطوم الماء، رفعته على رأسي وفتحت الصنبور فاندفع الماء بقوة على رأسي. عدتُ إلى الغرفة وكنتُ أشعر بحقدٍ وكراهية بل احتقار لنفسي ولأمجد، فوجدته لم يزل على جلسته على الأرض متكئاً على مقعد الكرسي وقد وضع رأسه بين كفيه. وقفتُ قريباً منه وأنا أتطلع إليه بنظرات جارحٍ يتهيأ للانقضاض على فريسته. رفع رأسه فرأيت وجهه غارقاً بالدموع. كظمتُ غيظي متحفزاً لأية ردة فعل قد تصدر منه لكنه كان مسالماً، جريحاً. كانت بي رغبة أن أركلهُ، ألكمهُ، إلا أني أشفقتُ على انكساره وضعفه. جلستُ على طرف الكنبة محاولاً السيطرة على جسدي وركبتي المرتعشتين. أخرجتُ سيجارة ونفثت دخانها بحقد. نهض منكّساً رأسه، ذهب إلى الحمام وارتفع صوت تقيئه، وحينما عاد جلس بالقرب مني مخذولاً، فسألته بتأنيب:

«ليش سويت بيّ هالشكل؟»

رفع رأسه نحوي بعينين تتقدان بالدمع والاستفزاز ثم خرج صوته متكسراً:

«كل الرجال الشرقيين تافهين».

فسألته على الفور:

«وأنت من المريخ؟»

«هذا الشيء أنتم لا تفهمونه».

قالها وقد أحاطَ رأسه بين ذراعيه مرة أخرى، ثم رفعه بعد فترة صمت. كان تنفسه خلالها يتصاعد بصعوبة كأن نوبة ربو قد أصابته فأخذ يتشبث بالهواء فاركاً صدره بكلتا راحتيه ثم نط صوته واثقاً كأنه يتحدى جموعاً من البشر:

«لا».

ثم أضاف بلهجة صارمة وتحدٍ أكبر:

«أنا مو رجل».

«ماذا تقصد؟»

سألته بارتباكٍ، فأضاف:

«يا أخي إفهمْ، أنا مو رجل».

«لم أفهم ماذا تقصد؟»

قلتُ، فأجاب وهو يشير إلى صدره بسبابته:

«أنا لست رجل، أنا امرأة، هل فهمت؟»

وحينما وجدني أنظر إليه بنظرات متشككة، هدأت أنفاسه وتغيرت لهجته بالحديث فجاء كلامه أكثر ليونة وانكسار:

«يا أخي أنا خلقت خطأ بهيئة رجل أما مشاعري وأحاسيسي وجسدي كلها تنتمي إلى عالم النساء».

لم أستطع الرد بسوى نظرات ذهول وبلادة وحينما ألحّ علي بأن يسمع مني رأياً، أجبتُ بصوت واطئ محاولاً أن لا أجرح مشاعره أو أكون متواطئاً مع الطبيعة ضده:

«ربما، لا أدري، شيء مؤسف».

نهض بعد أن عبّ بقية كأس العرق ودخل غرفة النوم. جلستُ وحدي أدخن مرتبكاً. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ليلاً. لحقتُ به إلى الغرفة فوجدته قد دفن رأسه في المخدة وهو ينشج كامرأة حقيقية. جلستُ على حافة السرير. وضعتُ يدي على رأسه (رأسها) فارتفع نشيجه (نشيجها)، ثم هدأتْ أنفاسه (أنفاسها) شيئاً فشيئاً فانسحبتُ ببطء. أنزلتُ ملابسي من حبل الغسيل، كانت لا تزال رطبة. ارتديتها على عجل وقبل أن أغادر البيت ألقيتُ نظرة على غرفة النوم فرأيت أمجد نائماً (نائمة) وقد ارتفعت دشداشته (دشداشتها) وظهر اللباس الداخلي لا يغطي سوى الأخدود الملتهب بالشهوة. تقدمتُ نحو الجسد الراقد خطوتين. حاولت لمسه. خطرتْ في ذهني فكرة «لو أني كنت قادراً على إشباع رغبته» إلا أن هاتفاً صرخ بي فتوقفتُ. أدرتُ نظري في أرجاء الغرفة، الخزانة الصغيرة، زجاجة العطر، المرآة، الشرشف الزهري النظيف، والبُرنس الزهري المرمي على الكرسي. فجأة تضوعتْ في الغرفة روائح أنثى يتفجر من ترائبها نبع من اللذة الغامضة فامتلأت رئتاي بهواء منعش الرطوبة. خرجتُ إلى الشارع لا يهمني اتجاه بوصلتي. كانت الشوارع خالية إلا من بضع سيارات أجرة، كانت تخفض سرعتها حينما تقترب مني وتزمر إلا أني ما كنت أملك ثمن الأجرة فسرتُ مترنحاً أصفّر لحناً غريباً كي أطرد الوحشة. كان الظلام يرتسمُ أمامي بحراً مترامياً. نورسٌ يهبط نحو الماء بسرعةٍ ضوئيةٍ، يغرز منقاره ثم يحلّقُ منتشياً، ساخراً من سكوني المتاخم للبحر.

لاح نورس ضائع في سماء الصحراء فارتفعتْ رؤوس الرجال مستبشرة بالوصول إلى الوطن. انتبهتُ إلى أن الوقت قد مرّ سريعاً دون أن أدري حيث أن الشمس قد مالت إلى الغروب وبدأت التضاريس تتغير فقد مررنا

ببضع أشجار ونخيل يغطيها الرمل والغبار فبدتْ كأنها شواخص غريبة. حثثتُ الخطو للحاق بالقافلة وحينما اقتربتُ من مؤخرتها ناديتُ على ماريانا فالتفتتْ إلي ثم توقفتْ، حتى وصلتُ إليها. شددتُ كتفيها بقوة فتوجستْ أمراً غريباً مني. حدقتُ في عينيها فأسبلتْ جفنيها كأنهما تحاولان إخفاء السر. ارتسمتْ أمامي بوضوح ملامح وجه أمجد صافي. ارتبكتْ كأنها أدركتْ ما يدور في ذهني. حاولتْ أن تحرر كتفيها من سطوة قبضتي، إلا أنها تيقنتْ بحدس أنثى بأني قد كشفتُ السر فكانت تنتظر ردة فعلي مستسلمة كأسيرة. حررتُ كتفيها فسارت جنبي صامتة.عثرتْ بخطوة مرتبكة فأحتضنتها. أحطتُ كتفها بذراعي ضاغطاً جسدها إلى جسدي بقوة فألقت رأسها على كتفي. كان لمعصمها ارتخاء المخمل المستكين إلى نار تقترب منه.

«إذن أنتِ أمجد صافي!»

«نعم».

أجابتْ بصوتٍ واطئ ثُم أضافتْ دون أن ترفعَ رأسها عن الأرض:

«هذا هو السرّ الذي كنتُ أنوي أن أخبرك به حينما نصل إلى الوطن وكلّ منا يذهب في طريقه».

الفصل الثامن

لم يعترض سوى رجل أو رجلين حينما أعلن أبو عبد الصمد بأننا سنقضي هذهِ الليلة في العراء على الرغم من أن أضواء المخفر كانت تبدو قريبة وكنا نلمح بين الحين والآخر أنوار سيارات وربما دوريات عسكرية تبحث عن متسللين من الخارج، وأصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الوطن الذي حلمنا بلقائه طيلة سنوات منفانا الطويل، وقد أكدتْ لنا قوافل الخارجين الجدد على أن المسافة ما بيننا والحدود لا تتعدى المسير ساعتين أو ثلاث. قال أبو عبد الصمد بلهجة واثقةٍ:

«سنقضي ليلتنا الأخيرة هنا، وفي الفجر سيذهب كل منّا إلى حال سبيله!»

قال ذلك مشدداً على عبارته الأخيرة كأنه قد تعب من القيادة أو لأمر ما، فلقد حدث قبل ساعات أمر جعل البعض يشير إلى أبي عبد الصمد بأصابع الشك والاتهام، فحينما التقينا قبل ساعة بقافلة قادمة من الوطن وقد كانت تضم رجالاً من النظام السابق فرّوا بعد أن استشعروا خطراً على حياتهم لما اقترفوه من جرائم لم يدر في حسبانهم سيأتي اليوم الذي ينبغي عليهم دفع ثمنها. حاول البعض منا بحماس الهجوم على قافلتهم وتنادى بالثأر، فتحفز الرجال غاضبين إلا أن أبا عبد الصمد عارض الفكرة بشدة، وحينما

لم يعر البعض رأيه أي اهتمام، أخرج مسدسه مهدداً بقتل من يخالف رأيه. لم يكتفِ بذلك بل ذهب إليهم متودداً حتى توجس البعض خيفة من كونه قد عقد كعادته صفقة مريبة مع رجال الحكم السابق، إلا أن البعض الآخر أثنى على حكمة أبي عبد الصمد مبرراً الأمر بخطورة اجتياز الحدود ليلاً، فدوريات الجيش المكلفة بحراسة الحدود قد تطلق النار علينا ظناً منها بأننا من رجال العصابات والمقاومة التي تتسلل من دول الجوار، وإذا حالفنا الحظ واجتزنا الحدود بسلام قد نقع فريسة قطاع الطرق الذين انتشروا هذه الأيام لانفلات الوضع الأمني في البلاد.

«بعد أن نصلي صلاة الفجر، وهُبْ ونحن في حضن الوطن».

قال شيخ بثقةٍ، فأضاف آخر:

«ما راح يطير الوطن، راح توصلون وتملّون وتقولون يا ريت ما رجعنه».

«والذئاب!؟»

سأل ثالث، فرد عليه الشيخ:

«شبيها الذئاب، سلام الله عليها».

ثم أضاف بثقة من خبر الحياة وطبيعة البشر:

«ابني، عدو تعرفه خير من صديق لا تعرفه».

ثم استدرك كأنه قد نسي شيئاً:

«ثم من قال لك إن الذئاب اليوم أخطر من بني آدم؟»

تنحنح شيخ آخر هازاً رأسه متفقاً مع ما قاله الشيخ الأول ومضيفاً:

«من الذي قتل أبناءنا الذئاب أم أبناء جلدتنا؟»

عند هذه الجملة عمّ صمت فائر وزفر الرجال حسراتٍ ساخنةً على ما

جرى لاعنين النظام السابق وأعوانه، وقد توعد البعض بأخذ الثأر بينما راح يردد البعض الآخر آيات قرآنية تدعو إلى العفو وطي صفحة الماضي، «عفا الله عما سلف». اشتقتُ إلى علي كارثه وشعرتُ بغصّةٍ لغيابه المبهم، ولأول مرة أشعر بحاجتي لسماع رأيه فهو الآن أعرفنا جميعاً بأيهما أقسى الذئب أم ابن آدم. سألتُ ماريانا عن رأيها بما تسمعه من آراء فهزتْ يدها ماطةً شفتيها بسخرية وألم. كان الخوف يبدو واضحاً على ملامحها كلما اقتربنا من الوطن وصارت تأتيها نوبات من الغضب دون أسباب تستوجب ذلك، ولأني لا أريد أن أنكأ جرحاً غافياً آثرتُ الصمت.

انشغل الرجال بجمع الأشواك وبعض الأغصان اليابسة من الشجرات القليلة المتناثرة في المكان. حذّرهم أبو عبد الصمد من إشعال النار كيلا يكتشف حرس الحدود مكان وجودنا فنكون تحت خط نيران رشاشاتهم، فحفر الرجال حفرة وأضرموا النار لعمل شاي المنفى الأخير. أخرجوا ما بقي في حوزتهم من متاع وافترشوا الأرض مشكلين دوائر صغيرة محافظين على حدودها التي رسموها بالأمس، إلا دائرتنا أو بالأحرى مثلثنا فقد خسر أحد أضلاعه أمس تاركاً الصمت والحيرة يحلان محله. هبت رياح شرقية محملة بالرمل وحصى ناعم فصرخ أحد الرجال مبتهجاً:

«أفيش يا ريحة هلي».

وارتفع صوت البعض مردداً أغنية شجية:

«على شط الفرات تهيم روجات الأمل بيَّ

من نسمات ضفّتهم حبهم هاللعب بيَّ

ما أنسى هواهم دوم ولا حبي ومنافيَّ

على شط الفرات تهيم...»

بينما راح يرتل البعض الآخر آيات قرآنية، وثالث نائحاً:

« مدينةَ جذنا لا تقبلينا فبالآهات والحسرات جينا
خرجنا منك شبّانا وعدنا شيوخاً نرتجي قبراً وطينا »

توسدتُ حقيبتي الصغيرة الخالية إلا من كتاب ودفتر مذكراتي الصغير. مددتُ ذراعي فألقتْ ماريانا رأسها. كنا صامتين نتطلع إلى السماء التي بدت لأعيننا أقرب من الوطن، كواكبها مصابيح تتدلى إلى عمق الروح فيفيض بهاؤها دموعاً وشجناً لا يمكن تحديد أسبابه كأن قدر الإنسان الحزن حتى في لحظات بهجته. سماءٌ تعطي أكثر من زرقتها وجرح يمطر. يعشوشب حقل ابن آدم، ولكي يحمي حقل بهجته يقضي العمر واقفاً كفزاعةٍ يهش على غربان الظلام، والليل يعلّمنا بأسراره الغامضة سبلاً لنسيان الفجر حينما لا يأتي كي يأتي عنوةً فلم يعد للوصول بعد الانتظار فرحة اليقين ولا زهو اجتياز معابر الخطر أو كبرياء الحكمة، وهكذا صرنا نخلط ألوان الصحو بآنية الغيم ونعرّي العراء من عريه ليبدو أكثر جمالاً، وبالوهم وحده نرسم الطريق، حتى إذا صدق حدْسنا مصادفةً وتحقق الوهم نشتاق إلى حيرتنا:

«لماذا؟»

خرج السؤال بصوت عالٍ كأني أخاطب نفسي التي تجسدت أمامي متخذة هيئةً أخرى خارج جسدي. انتبهتْ ماريانا فسألتني عما أفكر فيه. ولكي أموّه حيرتي وسرحاني أعدت سؤالي مرة أخرى وكأني أشرك ماريانا بحيرتي:

«لماذا ننتظر الذي لا يأتي وحينما يأتي نشيح بوجوهنا عنه؟»

أدارتْ ماريانا رأسها نحوي وقالت بثقةٍ لا تخلو من سخرية من سفسطتي الليلية:

«المسألة ليست بالذي يأتي أو لا يأتي».

صمتتْ قليلاً ثم أضافت:

«المسألة أبسط من ذلك بكثير».

تأكدتْ من إصغائي إليها، حاثاً إياها على مواصلة الكلام، فاستأنفتْ كلامها بسؤال كنت أتهرب من الإجابة عليه منذ سقوط النظام السابق:

«أين ستذهب؟»

قلتُ وكأني أجيب على بديهية:

«إلى أهلي طبعاً».

«وهل ستجدهم؟»

«سأجد بعضهم بالتأكيد».

فأجابتْ بترفعٍ:

«ليس هذا ما قصدت».

ثم أضافتْ:

«كنت أقصد هل سوف تجدهم كما عرفتهم أو كما كنت تحلم أن تراهم؟»

حاولتُ أن أرد اعتباري وأثأر من سخريتها فقلت عارضاً الأمر بيقينية وثقة:

«بالتأكيد أن السنوات الطويلة التي قضيتها بعيداً عنهم قد غيّرتني وغيّرتهم وهذا أمر طبيعي يعرفه حتى الجاهل».

ظهر الحزن على ملامح ماريانا. حاولتْ أن تقول شيئاً إلا أن شيئاً منعها من القول فصمتتْ متنهدةً بحزن، وبجهل مني سألتها:

«وأنت أين ستذهبين؟»

قبل أن أكمل سؤالي أدركتُ الحماقة التي ارتكبتها، لكنها كانت تتوقع مني مثل هذا السؤال الذي لا يضمر البراءة. طلبتْ مني سيجارة وراحت تدخن نافثة الدخان إلى الأعلى، وبعد صمت كنتُ أشعر خلاله أن أشياء تتكسر في روحها، أجابت بصوت واطئ:

«لا أدري».

ثم أضافت بحزن:

«لقد أصبح الفرق بيني وبين الوطن مسافة من الصعب طيها وهوّة لا يمكن ردمها».

تطلعتْ إليّ فوجدتني مصغياً إليها كأني أحاول ارتشاف الكلمات من شفتيها فأضافتْ:

«حينما يغادر الوليد رحم أمّه يبكي غربة وحنيناً إلى الرحم لكن سرعان ما ينسى وتطويه دورة الحياة أما أنا فولدت منفياً، منفياً في جسدي».

قاطعتها بسذاجةٍ وكنت أنوي تخفيف عبء الحزن في داخلها:

«تقصدين منفيةً».

فأجابت دون تردد كأنها توقعت سؤالي:

«أنت عشتَ المنفى ولكنك لم تعش لغة المنفى فلن تدرك الفرق».

ثم وبألمٍ وتأنيبٍ واضحين سألتني:

«هل تعرف ماذا يعني أن يكون الإنسان منفياً في جسدهِ؟»

وحينما تلكأتُ بالإجابة استأنفت حديثها:

«قد يهرب السياسي المعارض لسلطة بلاده إلى المنفى فيحصل على اللجوء السياسي في بلد ما... في البدء يؤجل أحلامه، طموحه لكن حينما تطول فترة نفيه يجد أن الكرسي الذي اعتاد أن يرمي عليه ملابسه لم يعد يحتمل فيشتري خزانة ثم شيئاً فشيئاً يؤثث منفاه وربما يتزوج وينجب أطفالاً سيكبرون في وطنٍ هو منفى أبيهم وربما يتغير النظام في بلده فيعود زائراً أو مقيماً، أما أنا فقد ولدت منفياً في جسدي ولم أرحل من وطن إلى منفى بل من ذكورة منفاي إلى أنوثة غربتي. وجهي صار قناعاً لشخص يشبهني في الشكل ويختلف عني في الجوهر، مرآتي جلاد يطاردني بسوط اللاتجانس. جسدي مواطن مخطئين ولاجئين من التشرد للتشرد. لا منفى لي بل أنا منفى نفسي».

توقفتْ قليلاً كي تسترد أنفاسها فقاطعتها محاولاً تهدئتها:

«لا علاقة للجنس في الشعور بالنفي بل في الجسد سواء كنتِ ذكراً أم أنثى، كلنا منفيون في أجسادنا، كلنا يصرخ من بئر مُجونهِ مستغيثاً من شبق دكتاتور أو مرض أرعن، باحثاً عن طريق يوصل روحه المحاصرة إلى السماء، وحينما يصبح الوصول مستحيلاً يُختلق العذر أو يستكين الإنسان في بئر مجونه يؤثث منفاه بموبقاته أملاً بالتحرر من سلطة الجسد ليعود المنفي إلى وطن أحلامه».

بدأ الملل يظهر على وجه ماريانا من كلامي فصمتتْ ولم تبدِ أي انفعال كأنها تغور في أعماق سحيقة حاولتْ أن تعفيني من خطورة الغور فيها. التفتتْ إلي وعلى شفتيها ابتسامة أسى أو سخرية حيث لم أعد قادراً على التمييز بينهما، ثم قالت:

«سألني الطبيب الدنماركي الذي أجرى لي عملية تغيير الجنس إنْ كنتُ واثقاً من صحة ما أسعى إليه فقلت له بلا مبالاة أريد الخروج من سجن منفاي إلى فضاء غربتي».

ارتفع صوتها بضحكٍ هستيري وهي تردد:

«لم يفهم ما قصدت».

توقفتْ عن الضحك والسعال ماسكة رأسها كأنها تريد إيقاف دوران الأفكار في رأسها ثم ألقت رأسها على صدري باستسلام حتى توقف ارتعاش جسدها وهدأت أنفاسها.

«وهل أنت نادمة؟»

سألتُ، لكن السؤال ارتد علي حيث أن ماريانا كانت نائمة أو أنها تفتعل النوم هروباً من أسئلتي، فوجدتُ في الإجابة على هذا السؤال تسلية أقضي بها الليل:

«لم يعد لهذه الكلمة من معنى حينما تكون حياة المنفي سلسلة من الأخطاء أفدحها المنفى ذاته فهو خطوة في غير محلها أو ربما خطوة في اللامكان ترسمها المصادفة على طريق غير ثابتة الاتجاه».

«ألهذا تقمط الأم وليدها؟ لكي يحسن المشي في طرق معوجة؟»

«أم ليشنق في حبل قماطه؟»

«المنفى غابة كثيفة الأشجار أو كثيفة الأنياب، قد يجد المسافر فيها ظلاً يستريح فيه ولكن يبقى الخوف هو الشعور الطاغي فالسائر فيها يتلفّتُ متوجساً من مجهول مخاتل يتربص به من خلف شجرة أو ربما الأشجار تتحول إلى أشباح تحاصر الغريب الذي يسير بلا بوصلة حاملاً أسفار فزعه

أينما يرحل. يصفّر لحناً كي يطرد الوحشة أو يبعد عنه شبح الصمت المخيف مثل حنينٍ على شفاه خرساء. ليل الغابة خانق لقلة الأوكسجين وهواء المنفى مختنقٌ بسموم الهواجس والقلق. إصغاء وتوجس وترقب قادمٍ لن يأتي. سقوط ورقة من شجرة، حركة فأر أو سنجاب، أقدام تصعد السلالم، لهاث قادم، يقترب، يوشك أن يطرق الباب، تنهض مرحباً بالزائر، حتى لو كان شرطياً أو موتاً. لا أحد سوى بصمات أصابعك على أكرة الباب ورائحة الغربة، تركها زائر عَجول».

«.............................؟»

«............................ ».

انتصف الليل ونام الرجال، بعضهم نام متعباً أو مخموراً هرباً من ثقل الوقت، فالنوم هو الفاصلة الزمنية غير المحسوبة لعبور البرزخ يستيقظ بعدها النائم فرِحاً كفرحة مسافر يستيقظ على صوت المضيفة وهي تدعو المسافرين إلى ربط الأحزمة فالطائرة أوشكت على الهبوط، والبعض الآخر نام بنفس مطمئنة لا يصيبها إلا ما كتب الله لها. شيخ كان وحيداً يجلس في مركز الدائرة متلعاً عنقه وهو يتطلع إلى الأفق كأنه بانتظار قادم وأصابعه تدوزن أوتار قلقه بتحريك خرزات مسبحته متمتماً بمفردات الشكر والحمد والتنزيه دونما وعي منه كأنه يدفعها رشوة للرب المشغول عنه.

لم أفاجأ بل كنتُ واثقاً من قدوم الذئاب، لذلك لم تحرك صرخة الشيخ أي شيء في نفسي، بل رحت أرقب النقاط الصفراء التي برزت فجأة على لوح الأفق الدائري وهي تقترب وتومض أكثر، وأصغي إلى الأصوات المتناغمة لحركة أقدامها وهي تضرب الأرض. نهض الرجال مفزوعين وهم يتكتلون في مركز الدائرة. حاول البعض أن يضرم النار فمنعهم الشيخ

مذكراً إياهم بأننا نقع على مدى رشاشات حرس الحدود. اقتربت الذئاب وهي تطلق عواءً غريباً يختلف عن الليلتين السابقتين.

«الثالثه بيها المنيّه»

قال صوت مرتعش فأصيب الجميع بعدوى الخرافة، بل حتى أنا وعلى الرغم من اللامبالاة وسخريتي من كل أشكال الخرافات إلا أن «الثالثة بيها المنية» اخترقتْ جدار عقلانيتي وتذكرت الرقم ثلاثة وما روي عنه من ارتكاب مآسٍ وحوادث. أحاطت الذئاب بنا مشكلة دائرة أضيق بكثير مما كانت عليها في الليلتين السابقتين. هكذا حسب البعض وإن اعترض البعض الآخر مبرراً هذه الرؤية بسبب الخوف من الرقم ثلاثة ومن كون هذه الليلة هي الليلة الأخيرة التي نقضيها في المنفى كشعور الجندي قبل ساعة من موعد تطبيق الهدنة، حيث يحسب كل جندي بأنه سيكون هو دون رفاقه ضحية الرصاصة الأخيرة التي سيطلقها العدو طيشاً أو ابتهاجاً بانتهاء الحرب، فالنفس تصبح أضيق مما عليه من قبل كلما اقتربنا من تحقيق الحلم، وهاجس الخيبة الذي اعتادت عليه النفوس غير الواثقة من أقدارها بل التي علمتْها أقدارُها بحكم سوء الظن بالخالق المهيمن الجبار الطائش، أن الحلم لا يكتمل وأن الفرح لا يأتي بعد التوقع إلا ناقصاً أو منغّصاً زهو المنتظر الواثق من حدْسه.

أقعت الذئاب كعادتها حاكةً جلدها ببراثنها البارزة بحركة استعراضية فأنشب الخوف أنيابه في النفوس المتوترة والذائبة بفعل تناوب حركتي الصعود والهبوط كما يحدث للمسافر في طائرة تخترق مطبات جوية.

توقف هرير الذئاب ونامت هادئة كما في الليلتين السابقتين فسكن الخوف في النفوس قليلاً، وارتفعتْ همسات الرجال بأحاديث مفتعلة

محاولة طرد ما بقي من الخوف واجتراح ثقة برحمة الخالق واجتياز امتحانه للنفوس المؤمنة بحكمته، مذكرين بعضهم برحمته التي وسعت كل شيء.

«وين أبو عبد الصمد؟»

سأل رجل كأنه أكتشف أمراً هاماً، فسرتْ همسات وهمهمات بين الرجال وحينما تأكد لنا غيابه وغياب مريديه المفاجئ شعر البعض بأن مؤامرة تحاك لنا في الظلام فارتفع منسوب القلق في النفوس. كان انسلاله مع رجاله من دائرة القافلة بهذه السرية والكتمان يدل على تخطيط محكم وعلى نيّةٍ مبيتة، وحتى من بقي صاحياً لم يشعر بغيابه وكأنه «فصّ ملح ذاب» هكذا ردد البعض. انشغل الرجال بأمر غياب أبي عبد الصمد، فكان كل سؤال ينطلق تنطلق معه احتمالات كثيرة لحل هذا اللغز وكلها تنطلق من سوء الظن، ليس لأننا اعتدنا هذه الطريقة في التفكير فحسب بل لأن أبا عبد الصمد نفسه لغز يمشي على الأرض، غموضه المشبوه يلفت النظر، ودونما تأمل عميق بل من اللحظة الأولى يدرك مَنْ يتحدث معه أن هذا الرجل ينطوي على أسرار يغري المقابل ويثير فضوله لنبش ماضيه وتحليل مقاصده، فكان الحديث عنه فرصة لنسيان الذئاب حتى غدا وجودها أمراً هيناً:

«لقد كان يعلم بمجيء الذئاب إذن، فهرب قبل مجيئها».

«لأنه يجيد لغة الذئاب».

قال شخص لايزال تأثير السكر واضحاً عليه من خلال تلعثمه في الكلام، ثم أضاف:

«بل هو واحد منها».

أصغى الجميع إلى ما قاله الرجل باهتمام كأنه يكشف لهم سراً غاب عن خاطرهم. وعلى الرغم من غموض العبارة إلا أن الكثيرين وأنا واحد منهم وجدوا فيها تعبيراً مناسباً لشخصية أبي عبد الصمد المخاتلة فأعيدتْ سيرته منذ مرافقته لنا في بداية الرحلة وحديثه الغامض مع صاحب المقهى وحصوله على السلاح وانتهاء بجملته الأخيرة الذي كررها مراتٍ عدة:

«كل شخص يذهب إلى حال سبيله».

«ولكن لماذا لم ينتظر حتى الصباح؟ ألم يحذرنا من حرس الحدود؟»

«هل أراد أن يكون السابق لتقديم ولائه لحرس الحدود وللنظام الجديد؟»

سأل شخص ببراءة فارتفع صوت المخمور ساخراً موجهاً كلامه للجميع:

«إلى متى تظلون ما تفهمون؟»

حاول رجل أن يرد هذه الإهانة فسأل المخمور بلهجة ساخرة:

«نوّرنا بالله بعلمك!»

فوقف المخمور مترنحاً في مركز الدائرة وهو يحاول ترسيخ قدميه على الأرض رافعاً سبابته كخطيب موجهاً خطابه إلى الجميع:

«الذئاب وحرس الحدود والنظام البائد والنظام الجديد وأبو عبد الصمد كلهم من صنف واحد، كلهم أقنعة لوجه واحد».

وحينما وجد أن الجميع كان يصغي إلى ما يقوله باهتمام، أضاف لتعزيز حكمته وتأكيد صحة رؤيته للأمور:

«والما يدرك ما أقوله الآن سيدركه غداً».

على الرغم من أن حديث الرجل ينطوي على رمزية يدركها الجميع إلا أن لا أحد منا كان يرغب أو يتجرأ على إزالة قشرة اللغز والحديث بشكل مكشوف، وعلى الرغم من أن أغلبنا يدرك صحة ما قاله الرجل إلا أن لكل منا انحيازاً لقناع ضد قناع لكن لم يتجرأ أحد على إعلان ذلك، ربما لأننا أنفسنا محض أقنعةٍ أو وجوه مطموسة. وهكذا وجدنا بهذه الرمزية هروباً من تناقضاتنا المتحفزة للاصطدام محاولين الحفاظ على شعرة القاسم المشترك التي تربطنا ببعضنا على الأقل ونحن في طريقنا إلى الوطن.

لم تكد تمر ساعة على مجيء الذئاب حتى نهضتْ بشكل مفاجئ صامتة على غير ما أبدتْ في الليلتين السابقتين. أنشبت براثنها في الأرض متسمرة، رافعة أبوازها، محركة أذنابها، ومشنفة آذانها كأنها تصغي إلى قادم بعيد. توقف الرجال بذهول يرقبون المشهد الغريب، وحينما لم تغادر الذئاب ولم تعد إلى حالتها التي كانت عليها أدركنا بأن أمراً مهماً سيحدث فدبّ الفزع إلى النفوس متوجسين خطراً أكبر مما نحن فيه الآن. حاول البعض اجتياز دائرة الذئاب بنفاد صبر وهرباً من خوف يتراكم كل لحظة فيجعل سابقه أماناً يحلم المرء به، إلا أنه عاد متقهقراً إلى المركز بعد أن ارتفع هرير ذئاب مكشرة عن أنيابٍ متحفزة لافتراس من يدنو من محيطها:

«الثالثه بيها المنيّه»

عادت هذه العبارة تتقافز على الشفاه حتى أصبحت المنية هذه الليلة أمراً محتوم الوقوع، ولم يستطع أحد أن يتجرأ ويسخر من استفحال خرافة كانت الجدات ترددها، بل بدا أن كلاً منا يحمل في داخله استعداداً لقبول أية خرافة حينما ينحدر المنطق في أول منازلة في ميدان العقل. تذكر

البعض أبا عبد الصمد وغيابه المفاجئ. أثنى الجميع على ذكاء وحنكة تفكير الرجل المخمور الذي أعلن أن:

«الذئاب وحرس الحدود والنظام البائد والنظام الجديد وأبا عبد الصمد كلهم من صنف واحد».

فأضاف البعض الآخر باستكانة وخوف:

«ويا غافلين إلكم الله».

هبّتْ عاصفة رملية كثيفة من جهة الغرب محملة بحصى ناعم فغطى الرجال رؤوسهم بأيديهم. لم يعد أحدنا يرى أبعد من كفيه. انسحبنا إلى المركز محتمين ببعضنا. صرخت النسوة وارتفعت أصوات الرجال بقراءة الأدعية والوعد بتقديم النذر حينما تنتهي هذه الغمة وتنقشع عتمة هذه الليلة الظلماء. أصوات قافلة قادمة من الجهة الغربية تختلط بصفير العاصفة وحركة ترتج لها الأرض تحت أقدامنا. الذئاب والليل المتنمر وحرس الحدود، حصار.. حصار، وفي تلك الدائرة يبدو الرجال كأنهم سكارى وما هم سكارى ولكن الصفير نفير حشر وهذا هو هول النشور. ارتفع عواء الذئاب وأبوازها نحو سماء بلا قمر يتسابق للوصول إليها دعاء وعواء، وللخالق وحده أن يختار بينهما. وبلحظة حسمَ الرب أمره بعد انفطار قلب الحجر شفقةً على كائنات بائسة منذ ولادتها وحتى احتضارها، وانحاز إلى صلصالٍ كونته يداه، فتوقفت العاصفة وكفت الذئاب عن العواء. كان الصوت القادم من جهة الغرب يبدو واضحاً، وشيئاً فشيئاً تأكد لنا من أن قافلة في الطريق إلينا. الأصوات تقترب وكما لو أن يد الخالق قد أزاحت ستارة الظلام عن الليل فأشرق نجم من جهة الغرب راح يكبر ويكبر حتى كاد ضياؤه يعشي العيون ثم راح يخبو شيئاً

فشيئاً تاركاً بقية من نور على الأرض. تطلعنا إلى جهة الغرب فرأينا بوضوح قافلة تخترق الظلام نحونا وسمعنا صوت حاديها واضحاً وبكاء أطفال ونساء. اقتربت أكثر حتى صرنا نرى الجِمال بوضوح. وقف الرجال متحفزين حينما أصبحت القافلة على بعد بضعة أمتار منا. أنيخت الجمال وعلى أسنمة البعض منها كانت هوادج سود يحركها الهواء مثل بيارق سود. تقدم نحونا رجل يرتدي سواداً كأنه قطعة من الليل بجبة طويلة وعمامة تدلى أحد طرفيها على الصدر ويتعكز على غصن شجرة أخضر مورق. سار نحونا بثقةٍ، قدماه ترجّان الأرض على الرغم من الوهن البادي على جسده المحني وتهدل كتفيه المتعبتين. اقترب حتى صار على مقربة من المحيط الذئبي. لم يأبه لوجود الذئاب وكأنه لم يرها أو أنه اعتاد رؤيتها. أحنت رؤوسها بخشوع كأنها تقدم إليه طقوس الولاء، وبطريقة منتظمة أزيح قوس الدائرة الغربي كأن عصا لا مرئية قد فلقت القوس الغربي من محيط الذئاب. سار الرجل حتى أصبح داخل الدائرة فتوقف الرجال كأنهم يستقبلون ضيفاً عزيزاً. توقف. كانت عيناه صفراوين تومضان بنور ذهبي برغم الحزن المشع من محجريهما وحبات الرمل العالقة في الأهداب. أماط اللثام عن وجهه فبدا كأنه هالة ضوئية مدورة على الرغم من سمرة بشرته واللحية السوداء المُغبرّة التي غطت وجهه:

«السلام عليكم».

قال بصوتٍ هادئ يشي بانكسار وتعب.

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

انطلق الصوت من أفواه الجميع بإيقاع رهبةٍ متطابق. نُسيَ الخوفُ

وتسمرنا في أماكننا منتظرين البشرى يزفها إلينا هذا القادم الغريب. لا أدري لماذا نسينا تلك اللحظة سوء الظن الذي جُبلنا عليه، فلقد كنا على الرغم من خوفنا وارتجاف القلوب التي كنا نسمع دقاتها إلا أننا كنا متلهفين، بانتظار سماع بشرى ينطقها هذا الرجل ذو المهابة الساحرة:

«هل هذه مضارب بني أسد؟»

سأل الرجل الغريب فعمَّ الصمت بيننا وانهار التوقع مدوياً في النفوس التي انتظرت بشرى بعثتها إلينا السماء لتنقذنا مما نحن فيه فإذا بالقادم غريب، ضائع يبحث عن مضارب اندثرتْ وأهلٍ ربما رحلوا مع العاصفة. لم يجرؤ أحد على الإجابة سوى الرجل المخمور فقد ردد بصوت واطئ ساخراً:

«لا، هذه مضارب بني ذيب».

ارتفع من بين الرجال صوت موجهاً كلامه نحو الغريب:

«أجل، أنا من عشيرة بني أسد».

ثم تقدم حتى صار بمواجهة الغريب ماداً إليه يده مصافحاً، وأضاف:

«أنا نسيم الأسدي، شاعر عراقي، وأقيم في ألمانيا وبالتحديد في برلين، صدر لي ديوان شعر مترجماً إلى اللغة الألمانية».

لم يعره الغريب اهتماماً فعاد يسأل موجهاً كلامه إلينا:

«أليست هذه أرض السواد؟»

تقدم إليه شيخ لم أكن قد رأيته من قبل وسأل باحترام وتودد:

«أي سواد تقصد؟»

ثم أضاف بصوت هامس:

«وهل غير السواد لون على هذه الأرض؟»

توقف الغريب صامتاً وأنظاره منغرزة في الأرض، ثم رفع رأسه، وبحزن عميق قال:

«أرض كربلاء ما عنيت».

فأجابه الشيخ:

«نحن في طريقنا إلى أرض العراق، ولكن كما ترى فإن ما يمنعنا من الدخول إليها هذه الذئاب وحرس الحدود الغرباء الذين جاءوا إلى بلادنا من وراء البحار».

ثم أضاف بحزن:

«إنه نزل بنا من الأمر ما قد ترى وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم تبقَ منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل».

توقف الشيخ غاصاً بحسرةٍ تكسرت في حنجرته، غير أن الغريب أكمل ما كان ينوي الشيخ قوله وكأنه يحفظ القول على ظهر قلب:

«... ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً فأني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

صرخ الشيخُ بذهولٍ كأنه أدرك أمراً غريباً:

«صدقتَ يا إمام المظلومين ويا سيد الشهداء.. سيد شباب الجنة».

ثم سأل بصوت مرتعش:

«من أنت يا أخا العرب؟»

رفع الغريب رأسه محدقاً إلى جهة بعيدة. كان مسار نظره مضيئاً كنبلةِ

شعاع تخترق الفضاء المغبر، ثم انطلق صوته حزيناً:

«أيها الناس..»

توقف قليلاً فنهض الرجال احتراماً مصغين لما سيقوله الغريب:

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي».

مسح شفتيه بيده بالعاً ريقه بصعوبة. قدّم إليه الشيخ كأس ماء تناولها فانحسر كمّه قليلاً فبدتْ آثار سلسلة أو قيود على يديه. قرّبَ كأس الماء من فمه متمتماً بكلمات لم أستطع سماعها، وارتشف قليلاً حامداً الله ولاعناً الشيطان والظالمين، ثم توجه إلينا بنبرة حزينة منكسرة:

«أيها الناس أنا ابن مكة ومنى أنا ابن زمزم والصفا أنا ابن من حمل الركن بأطرافِ الردا أنا ابن خير من إئتزر وارتدى وخير من طاف وسعى وحجّ ولبّى أنا ابن من حُمِلَ على البراق وبلغ به جبريل سدرة المنتهى فكان قاب قوسين أو أدنى أنا ابن من صلّى بملائكة السما أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى».

توقف الغريب عن الكلام، وتسمر كل منا في مكانه مصعوقاً. ارتفع صوت نسيم الأسدي ثانيةً، مردداً:

«هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتهُ والبيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عبادِ الله كلهمو هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلمُ»

فأجهش الرجال بالبكاء وارتفع صراخ النسوة. بكيتُ وبكتْ ماريانا وبكى الغريب وارتفع صراخ أطفال ونسوة في الهوادج. تقدمت امرأة وتبعتها أخرى وانهارتا تحت قدميه فرفعهما من كتفيهما مستغفراً الله، وحينما توقفتْ عاصفة البكاء تقدم شيخ نحو الغريب مخاطباً إياه بإجلال:

«يا سيدي يا ابن رسول الله هلا أنقذتنا بشفاعة أبيك وجدك من هذه الذئاب التي تطاردنا لليلة الثالثة؟»

نظرَ الغريبُ حوله ثم سأل باستغراب:

«أية ذئاب تعني!؟»

فالتفتنا جميعاً في لحظة واحدة فلم نجد أثراً للذئاب. تطلع كل منا في وجه الآخر علّه يجد تفسيراً لما يجري الآن أمامه، ثم ارتفع صوت الرجال مكبرين ساجدين وهم يرددون عبارات الحمد والتنزيه مصلين على النبي وعلى آل بيتهِ الأطهار المعصومين.

سأل رجل بعد ترددٍ وخشية:

«يا ابن رسول الله وهل لاتزال العقيلة زينب حانقة على أهل العراق؟»

فأجاب الغريب مبتسماً بحزن وهو يردد:

«لله دركم، لله دركم.. يا أهلَ العراق..»

وأضاف:

«ما أبهاكم من حزانى.. وحاشا لمثل العقيلة أن تحنق، فلا يحنق على منكوبٍ سوى جاهلٍ أو لئيم».

ارتفع صوتُ بكائنا فارتفع عويل في الهوادج. رفع الغريب ذراعه فعمّ المكان ضياء ذهبي أنار الآفاق. وبلغةٍ حزينة خاطبنا:

«والله لو أنزل هذا الحزنُ على جبل لتصدعَ».

ثم رفع يديه بالدعاء فرفعنا أيدينا مرددين خلفه بخشوع:

«اللهم إني أعوذ بك من هيجان الحرص وسَورة الغضب وغلبة الحسد وضعف الصبر وقلة القناعة وشكاسةِ الخُلُق وإلحاح الشهوة وملكة الحَمية

ومتابعةِ الهوى وسِنة الغفلة وإيثار الباطل على الحق والإصرار على المآثم وسوء الولاية نعوذ بك أن نعضد ظالماً أو نخذلَ ملهوفاً أو نروم ما ليس لنا بحق أو نقول في العلم بغير علم ونعوذ بك أن ننطوي على غشّ أحد أو أن نُعجبَ بأعمالنا ونعوذ بك من سوء السريرة أو أن يستحوذ علينا الشيطان أو ينكُبنا الزمان أو يتهضّمنا السلطان ونعوذ بك من شماتة الأعداء».

ثم أصطف الرجال خلف الغريب وأقيمت صلاة الغائب على نعش الضحية المجهولة. وما أن انتهوا حتى تهيأ الغريب لمتابعة سيره باتجاه أرض السواد فتشبثَ الرجال والنساء بأذياله وردنيه متوسلين به أن يضمهم خدماً في قافلة آل الرسول السائرة برأس إمامها الذبيح ورؤوس نجباء الشجرة الطاهرة باتجاه كربلاء.

سارت الجِمال وسار خلفها الرجال والنساء ضاربين الصدور مرددين:

«سار حادي العيس سار الدليلْ

وين راح يصير هذا الرحيلْ

ليش ضعن الإمامْ

ساير بهالظلام

حنّت الأطفالْ حنّ الفصيلْ

وين راح يصير هذا الرحيل»

....

حينما انقشع غبار القافلة لم أجد أحداً قد بقي في المكان سواي وماريانا.

الفصل التاسع

استيقظتُ على ركلةٍ في خاصرتي وصوت يصرخ بي:

"Get up"

كان يحيط بنا خمسة جنودٍ أمريكان مصوبين نحونا رشاشاتهم وأصابعهم تكاد تضغط على الزناد بينما توقفتْ بالقرب منا مدرعة عسكرية وجندي يتحدث بجهاز لاسلكي. التصقت ماريانا بي خائفة.

"Put your hands up"

نهضنا رافعين أيدينا وقبل أن أنطق بكلمةٍ صرخ بوجهي جندي زنجي بعينين حمراوين:

"Shut up! I don t want to hear one damn word"

رفعنا أيدينا مستسلمين لأعداء كثيرين يحيطون بنا من كل الجهات بوجوهٍ مطموسة وعيونٍ تتقادح شرراً. رفع الطفلُ يديه، رفعَ الشيخُ يديه، رفع الحب...، رفعت القصيدة...، رفع الزاهدُ في صومعةٍ على بعد آلافِ الأميال عن أرضِ المعركة، رفعتْ أمي...، رفع جلال مختار وعبد السادة وعلي كارثه...، رفعَ العبّاسُ ذراعيه المقطوعتين فسقطتِ الراية، سجدَ على الأرض ليلتقطها بفمهِ، ركلهُ جندي أشقر فسقطَ على الأرض ووجهه في التراب، صرخَ «الراية.. الراية»، فهمسَ بحزنٍ شيخٌ كان يقف إلى جانبه «بلا رايات، بلا إكلان...»، قلوب بيضاء مرفوعة، نخرها الحزن.

اقتربَ مني جندي آخر، مسكَ وجهي بقبضته بعنف. حاولتُ أن أحرر رأسي من قبضته فركلني بقدمه على موضع خصيتي موجهاً لكمة قوية إلى أسفل بطني. دارتْ بي الأرض ولم أعد أرى شيئاً. مسكني أحدهم كان يقف خلفي من حزامي ورفعني فتطوحتُ في الهواء كريشةٍ، ثم تركني أسقط فارتطم وجهي بالأرض. وضع قدمه ببسطالها الثقيل على رقبتي وانحنى غارزاً ركبته في منتصف عمودي الفقري فشُلَّ جسدي وانحنى يربط يدي بسلكٍ نحيف كاد يقطع يديّ من رسغيهما.

"Sit down!"

حاولتُ الجلوس إلا أني لم أكن أشعر بأن لي جسداً وكأنما جسدي لم يعد لي.

"Sit down Faggot"

في البدء لم تصدق أذناي ما سمعتا إلا أنه راح يكرر العبارة فتذكرتُ عبيد وقضيبه المنتصب وضابط الأمن وقرار ٢٠٠،...

«لا بأس يا ابن الستين كلب هذه هي الحياة، مسرحية هزلية تافهة بشخوصٍ متشابهة وإن اختلفتْ أشكالها ولغاتها».

واسيت نفسي الثكلى.

عُصبتْ عيناي بخرقةٍ رطبةٍ بسائل له رائحة البول وأجلستُ جاثياً على ركبتي. سمعتُ ماريانا تتوسل إلى أحدهم طالبة ماء فنادى صوت أجشّ ربما هو صوت قائدهم:

"Give the bitch some water"

حركة سحب أقسام الرشاشات وإخراج وإدخال مخازن الرصاص والحديث بلغة لا أفهم إلا القليل منها ضاعف الخوف في نفسي.

"No, no , please"

كنتُ أسمع ماريانا تتوسل وسط ضحك الجنود وكلماتهم البذيئة. تخيلتها غزالاً جريحاً تدور حوله الضباع ناهشةً أضلاعه الطرية. بعدها توقف ضحكهم وصراخ ماريانا فحسبت أن الأمر قد انتهى، غير أنهم انفجروا بضحك عالٍ، كان أحدهم يردد كلمة:

"shemale"

فتذكرت العبارة التي كانت ترددها ماريانا أمس بحزن:

«جسدي مواطن مخطئين ولاجئين من التشرد للتشرد».

قادني أحدهم من الخلف غارزاً أصابعه الحادة في رقبتي ورميت في جوف العربة التي انطلقت إلى اللا اتجاه.

رفعتْ العصابة عن عيني فوجدتني واقفاً في غرفة صغيرة جدرانها مطلية بورق أزرق وعلى منتصف الجدار الأمامي كان العلم الأمريكي بنجومه المتراصة ككردوس من جماجم. وقفتُ أمام شاب أشقر يجلس خلف مكتب صغير، تطلع إلى وجهي بنظرات حادة من عينين زرقاوين ثم أشار إلي بالجلوس على كرسي معدني أمامه:

" Is this your passport ? "

" Yes"

كان ينقل نظره بين صورتي في الجواز ووجهي، ثم سألني:

"When did you get your Danish citizenship ? "

" More than 10 years ago"

" When did you leave Iraq ? "

" Twenty two years ago"

" have you ever belonged to a politcal party ? "
"No"

تطلع إلي وهو ينقر سطح المكتب بأطراف أصابعه مصفراً لحناً غريباً:

"Since you have Danish passport , why did you enter the country illegally ? "
" I was following my footsteps"
" What ? "

سأل باستغراب فكررتُ عليه الإجابة مضيفاً:

and I was looking for a bar located on the border , in which , long time ago , I left my belongings and my memories.
" A bar ? "
" Yes , A crossroad s bar , haven t you heard about it ? "

تطلع إلي مبتسماً، كانت نظراته لا تضمر حقداً أو نية شر، وربما أشفق علي وحسب ثرثرتي وهذياني تعباً أو خوفاً فخاطبني:

" Sir , be quiet and concentrate! "

ثم أضاف:

"You are now in your liberated country"

هززتُ راسي دون أن أنطق بكلمة، فواصل التحقيق:

" What did you plan to do in that crossroad s bar"

فأجبت سريعاً دون تفكير:

"I was looking for Mr. Gilgamesh"

نهض بتثاقل وخاطبني بتعال:

I am going to give you a little break for right now , but I ll come back to finish the interrogation , and after that I will let you go to your family in peace

وقبل أن يخرج سألته:

"What about my girlfriend"

ارتفع صوته مقهقهاً وغادر الغرفة.

سمعتُ صراخ ماريانا قادماً من غرفة مجاورة مختلطاً بقهقهات الجنود وكلماتهم البذيئة، فأدركتُ أن جسد ماريانا بنصفِ أنوثتهِ صار ضمن ممتلكات المحتل الذي لم يكتفِ بالأرض وما تحتها ولم يترك لنا وطناً أو منفى. كدت أصرخ احتجاجاً إلا أني تذكرت بأني لم أعد أستطيع التمييز إن كنت ما أسمعه الآن حقيقة أم وهماً. كان الوقت يمر غارزاً دقائقه كأنياب ذئب في جسدي أو كمرور مجنزرة على طريق أسفلتي. افتعلتُ سعالاً لعل الشاب ذا العينين الزرقاوين يتذكرني ويأتي حتى لو يتلو علي قرار الإعدام حيث أني لم أعد أطيق التحقيق والانتظار. عاد الشاب بصحبة ماريانا. تطلعتُ إليها كانت منفوشة الشعر وفي عينيها انكسار واضح فتأكد لي اغتصابها، وعادت عبارتها تئز في أذني كمثقب كهربائي:

«جسدي مواطن مخطئين ولاجئين من التشرد للتشرد».

قدم لها الشاب الأمريكي كرسياً فجلست لصقي ورأسها هاطل على صدرها بإهمال وعيناها منكسرتان تحدقان إلى الأرض ببلادة وذهول.

Did both of you return alone , or with somebody else ?

فأجبتُ بثقةٍ:

"We were part of a convoy made up of a hundred men and women"

فتوقفتْ أنظاره عليّ محدقاً كأنه أكتشف أمراً مهماً، ثم سألني بصوت صارم:

Where are the rest of the people ?

"They entered the country before the sunrise"

نهض وغادر الغرفة مهرولاً فندمت على ما قلته لكني عدلت عن ندمي، فلعله كان يريد اختبار صحة كلامي، ولابد أنه قد أجرى تحقيقاً مع بعض الرجال الذين دخلوا قبلي. لم يمكث خارج الغرفة طويلاً فقد عاد مسرعاً. كان يبدو عليه أنه أكثر اهتماماً بالأمر، ثم سألني:

Did they bear weapons ?

فأجبتُ دون وعي مني:

They carried their sadness

لم يفهم ما قلته فحاولت أن أوضح له:

Sad and grief they entered with Zen Alabedean s caravan , which was coming from Alshaam with Ahil Albait Saints heads

ضرب الطاولة بقبضته صارخاً:

Ahil Albait Saints heads , Zen Alabedean , Gilgamesh!! I don't understand this bullshit!!

أسندت كوعيّ على سطح المكتب متطلعاً إليه ببرود، فتطلع إلي بغضب، وحينما تمهلت قليلاً منتظراً أن يهدأ، استفزته وقفتي فصرخ غاضباً ماسكاً عنقي بقبضته حتى كاد يخنقني، لكن سرعان ما أدرك حماقته فتراخت قبضته شيئاً فشيئاً. رمى جسده على الكرسي متأففاً، ماسكاً صدغيه بسبابته وإبهامه حتى هدأ. تطلع إلينا وعلى شفتيه ابتسامة اعتذار، فبادرته:

Sir , please calm down

شعر بوخزة في كبريائه لكنه لم يجد ما يرد به على تجاوزي لحدود المتهم أو المحتَل. أشار بيده إلي كي أواصل الكلام، فقلت:

Sir , you should understand that Ahil Albait Saints , Zen Alabedean , and Gilgamesh..

توقفتُ قليلاً ثم أضفتُ:

Tigris and Euphrate are not names for military bases or oil fields. it is not weapon of mass destruction , or purified uranium. these are our historical names. You , who are coming from over seas , would never recall it , or understand its significance.

تطلع إلي بعمق ثم هزّ رأسه كأنه يوحي لي بأنه يتفق معي على ما قلته. ناولنا جوازيْ سفرنا وأشار إلينا بيديه للنهوض ثم سار وراءنا وهو يردد بلا ثقة:

You are welcome in your free country

لم نمشِ سوى بضع خطوات عن المخفر الحدودي باتجاه الوطن حتى صرخ الشاب خلفنا. توقفنا بذعر حيث كنت أحسب أن الرصاص سينهمر علينا من كل جهة، لكن الشاب لوّح لنا مودعاً وهو يصرخ:

Don't forget to say hello to Mr. Gilgamesh.

عدتُ إليه فهرول نحوي مبتسماً، وحينما التقينا مدّ يده مصافحاً، فقلتُ له مازحاً:

And when you go back to your country , don't forget to say hello to Walt Whitman.

أصغى إلى كلامي بجد ثم سألني:

Who the hell is he ?

فأجبته:

Mr. Walt Whitman is the owner of McDonald s chain.

ثم أضفتُ ضاحكاً:

Isn t he ?

الوطن.

«نحن الآن في العراق».

قالت ماريانا بانكسارٍ كأنها كانت تتوقع أن للعراقِ أرضاً وهواءً يختلفان عن أرضِ وهواء المنفى. ربما كانتْ تنتظرُ أن تهتزّ الأرضُ طرباً وفرحاً بعودةِ أبنائها فاكتشفتْ أن لا شيءَ من تلك الأوهام، أوهام الغربة التي رسمها الشوقُ وجسّدها حقيقةً في ذهن المنفي. كان جسدها يرتعش فتشبثتْ بذراعي. مشينا بتمهلٍ وكأن الزمن توقف أو كأننا لا نريد الوصول إلى شريط النهاية فينتهي السباق، السباق الذي لم نعد نعرف طريقاً غير مضماره وكأننا أدمنا الركض باتجاه أفق لامرئي. نركضُ.. نركضُ ونتلفت بين اللحظة والأخرى وكأن السماء مليئة بمزاغل توجه بنادقها نحونا. مع كل اطلاقة يسقط حرف من أبجدية اللغة وحرف من الاسم حتى يصبح هذا الناطق بهيمةً أو يعود طيناً. تعيد الأقدار تشكيله وفخره كي تهشمه وتعيد تشكيله وهكذا....

«أيّ وطن غريب أنتَ، وطنٌ منفي في نفسه!»

«راكدٌ ماؤك».

«راكدٌ لكنه يجري».

«يجري ولكن بين صلب جبلٍ محترقٍ وترائب سهل عقيم».

«عقيم ولكنه ينجب يباباً».

«وأبناؤك الذين خُلقوا من مائك خُلقوا على صورتك».

كانت المركبات العسكرية الأمريكية تمر على الشارع العام متوجهة إلى عمق عراق لم نعد نعرف أي طريق يؤدي إليه. قالت ماريانا:

«لنبتعد عن الشارع العام!»

وحينما سألتها عن السبب، أجابت بحسرة:

«لا أطيق رؤية الجيش الأمريكي وهو يسحق جسدي».

هززتُ رأسي موافقاً على طلبها. تشبثتْ بخصري بقوة ونزلنا بحذر كتفَ الشارع الإسفلتي المنحدر نحو طريق ترابي قديم. انزلق جسدانا بخفةٍ كأننا نتزحلق على سفح جليدي. مر وقت ليس بالقصير ونحن ننزلق على منحدرٍ لا يتجاوز ارتفاعه الخمسة أمتار فشعرتُ كأننا منفلتان من جاذبية الأرض أو متوقفان في الفضاء. لم نشعر بارتطام جسدينا على سطح الطريق ولكننا كنا نشاهد أقدامنا وهي تغور في الأرض شيئاً فشيئاً. غاصت ركبنا ومازلنا ننزلق. حاولتُ أن أتمسك بأي شيء كي أوقف هذا الانزلاق فلم أجد سوى الهواء. مسكتُ الهواء فلدغني. غرنا في الأرض حتى خصرينا. لم تكن الطريق القديمة رخوة أو كثبان رمل ولكنّ جسدينا كانا ينزلقان كأنهما قد دُهنا بزيت. انزلق جسدانا حتى العنق فصرخت ماريانا. لكن ابتلاع الأرض لنا كلياً كتم صرختها. شعرتُ برطوبة الأرض وحرارة أعماقها. حاولتُ إيقاف التراب المنهار على رأسي والتشبث بسطح الأرض لكن.. سُدى، فانزلاق جسدي نحو الأعمق لم يترك للاستغاثة من جدوى.

«هل عدتُ إلى الرحم أم أني أنزلق نحو الجحيم؟»

كانت لزوجة ورائحة التراب كلزوجة ورائحة الدم.

فجأة توقف جسدي وكأن الرحلة قد انتهت. توقفَ انهيال التراب علينا.

حركتُ ذراعي تحت الأرض فاصطدمت بذراع ماريانا، فتشبثتْ بها، ومن تحت التراب سمعت صوتها يسألني:

«أين نحن الآن؟»

فأجبتها بثقةٍ لا أعرف من أين جاءتني تلك اللحظة:

«إننا الآن في مقبرة جماعية».

الفصل العاشر

بابٌ من خشب الصاج قديم ومرصعٌ بكراتٍ حديدية صدئة ومطرقة أخضرَّ نحاسُها، طرقتُها فانفتح الباب قليلاً. دفعته بتوجسٍ فظهرتْ أمامي صالة مضاءة بنور ذهبي خافت، أربع درجات غطاها عشب أصفر وأزهار ذابلة لكنها تقاوم السقوط.

«وأخيراً حانة مفترق الطرق».

تلك التي كانت تقف على الأرض راسخة بهيبتها، شامخة بأقواسها وجدرانها المزخرفة بتأريخها وحكمة نادلتها والقصائد التي كتبها الشعراء المنفيون الذين مروا بها. هبطنا الدرجات الأربع بحذرٍ. صالة واسعة للرقص تصطف على ثلاثة من جدرانها طاولات من خشب الصاج بنيّ اللون وكراسي الخيزران. تلفتّ فلم أجد نافذة، ربما كانت ولكنها أغلقت، فلم أعد أتذكر. جلستُ وماريانا على طاولة لصق الجدار المقابل للبار. الحانة خالية من روادها، والنادلة مشغولةً بتنظيف الكؤوس وقد أدارتْ لنا ظهرها. صفّتْ الكؤوس على الرفوف بعناية ثم أدارت وجهها نحونا. لم يبدُ أنها قد فوجئتْ بوجودنا. توجهتْ إلينا وهي تحمل كأسين فارغين وقنينة شراب غريبة الشكل. وضعتها على الطاولة وهي تردد كلمات الترحيب بلغة لم أسمعها من قبل. رفعتْ رأسها فوجدتني أحدقُ

إليها بتمعنٍ وحذر وحينما التقت نظراتنا ابتسمتْ. تسمرتْ نظراتها علي كأنها تحاول أن تتذكر وجهي ثم فجأة تغيرت ملامح وجهها. رددت اسمي بترددٍ فنهضتُ معانقاً إياها، ثم مدت يدها إلى ماريانا وهي تردد كلمات الترحيب باللغة الدنماركية، وبعد لحظات من الصمت قالت لي وهي تكاد تختنق تعاطفاً معي:

" Jeg er ked af at sige , du er kommet for sent for den anden gang"[١]

صمتت قليلاً ثم أضافت بحزنٍ:

" Han har vaert her igaar, men"[٢]

هززتُ رأسي بأسىً شاكراً لها تعاطفها مع خيبتي. وحينما عادت إلى البار، رفعت كأسها ونادتْ بودّ:

" skaal"

حانةٌ تكتظّ بالأشجار (لا أعني سيقان الفتيات) فهي وإن كانتْ مكتظّة بصبايا عاريات، سيقانهن مكتنزة يستطيع المرء سماع خطوات النار وهي تجري في الأنساغ، إلا أني هنا أعني أشجاراً حقيقية، أو هكذا بدا لي المشهد حينما دخلتُ الحانة أول مرةٍ حتى أني أسميتها (حانة عبقر) لأني كنتُ أذهبُ إليها كلما شعرتُ بإرهاصات قصيدة جديدة. نهودٌ عابثةٌ كثيرة اصطدمتْ بوجهي وصدري وأنا أخترق الزحامَ من البار حتى الطاولة المتفردة بسكونها في الركن عند النافذة. هناك انتبذتُ مكاناً في عتمةٍ تخترقها نبلةُ شعاع أحمر فتضيءُ سطح الطاولة. فتحتُ أزرار حيطتي

(١) يؤسفني أن أقول لك بأنك جئت متأخراً وللمرة الثانية.

(٢) كان هنا بالأمس، ولكن.

وتوجسِ الدقائق الأولى الذي يستبدّ بي كلما دخلتُ (أنا الغريب) إلى حانةٍ لا أعرف روادها. وباسترخاءِ مسافرٍ يضع رحله رحتُ أرتشف كأسي بكبرياء متجاهلاً السيقان والنهود والقبلات الشبقية التي كان يتبادلها الراقصون. أتطلعُ من نافذة الحانة إلى نافذةٍ مضاءة في أفق أوهامي وأصغي إلى أصوات البحّارةِ في الميناء وهم يتراشقون بكلماتٍ بذيئةٍ وشتائمَ موجهة إلى اللا أحد.

مرتْ بقرب طاولتي صبيّةٌ كاشفةً عن ساقين بضتين يضيئهما شررُ الشهوة فتساقط علي رذاذ له رائحة ماء الورد الذي يُنثر على الرؤوس في المآتم. ولكي أخرج من دوامة الهياج وأدخل إلى أعماقٍ تغري الخمرةُ الروحَ للسباحة في مياهها العميقة، أشرتُ إلى النادلة لتجدد لي الكأس. ملأتْ كأسي وبأطراف أصابعها أزاحتها باتجاهي مشيحةً بوجهها عني بغضبٍ لا معنى له.

«لم تعدْ نادلةُ الحانةِ كالسابقِ

لكنْ

لم يزلْ للخمر طعمُ الخمر»

رددتُ مع نفسي وأنا أتطلع من النافذة محاولاً تجاهل سلوك النادلة الفظ، غير أنها بعد خطوتين باتجاه البار توقفتْ كأنها تذكرتْ أمراً هاماً. عادتْ إليّ وبنظرة واخزةٍ قالت وهي تمسك خصرها بوضع تحدٍ:

«لأن الندماء لم يعودوا من رحلتهم بعدُ».

توقفتْ قليلاً ثم أضافت:

«والنوء ينذر بالخطر».

لم أعِ ما كانت تعنيهِ، ولم أدركْ أسباب غضبها عليّ وحدي، ولماذا اختارتني أنا الحزين دون الآخرين الذين ثملوا بعبثهم ورقصهم، لكني حاولتُ أن أمثلَ دور العارف بأسرار الحانة وروادها فسألتها وأنا أزيح نظارتي على أنفي بحركة تشير إلى الجد والاهتمام:

«والسيد نوح، ألم يعدْ بعد؟»

«أتعني نوح الأعمى؟»

سألتني، فافتضح أمري حيث أني لم أكن أدري أن السيد نوح من رواد هذه الحانة، بل إني لم أفكر بوجوده أصلاً. ولكيلا تكتشف فشلي في أداء الدور الذي لم أكن قد هيأتُ نفسي لتمثيله أجبت بصدق:

«لا أدري إن كان هو أعمى أم لا، فأنا لم أره من قبل».

تغيرتْ ملامح وجهها فأشرق بودّ ممزوج بالشفقة على هذا الرجل الغريب الذي أضاع فرصته، فقالت بحزنٍ:

«كان هنا بالأمس».

ثم أضافت بعد صمتٍ قصير:

«كان حزيناً لموت ببغائه، وقد شربنا بغيابك نخبَ وداعه».

وحينما رأت (بالتأكيد) الخيبة وقد ارتسمتْ على وجهي، قالت لي متشبثةً بخيطٍ من أمل واهن:

«بإمكانك الذهاب إلى بيته، ربما حالفكَ الحظ فتحظى برؤيته قبل الرحيل».

وقبل أن أسألها عن موقع بيته أزاحت ستارة نافذة الحانة وقالت وهي تتطلع إلى الخارج:

«هنااااااااااك»

وهي تشير إلى النافذة المضاءة في أفق أوهامي.

كان ذلك منذ زمن بعيد، وبالتحديد في الأيام الأولى لوصولي إلى الدنمارك، ولكن ما الذي أتى بهذه النادلة إلى العراق؟ وكيف اهتدتْ إلى حانة (مفترق الطرق) التي لم يعد أحد يتذكرها غير المجانين الباحثين عن شيء لم يعد له من وجود؟

أسئلة كثيرة خطرتْ على ذهني فأشرتُ إلى النادلة كي تحضر لنا قنينة أخرى، ولكي استفسر منها عن الأمر. اعترضتْ ماريانا إلا أنها رضختْ بعد أن رأت إصراري. جاءت، فانتبهتُ إلى أنها لم تكن النادلة الدنماركية. كيف حدث هذا التغيير على الرغم من أني طوال الوقت كنت أرقبها وهي مشغولة بتنظيف البار ورصف الكؤوس ولم أرَ أنها قد غادرت الحانة وحلّت محلها نادلة أخرى.

هززتُ رأسي نافضاً عنه الوهم أو السكر. وضعت النادلة قنينة الشراب على الطاولة. تطلعتُ إلى وجهها بفضول. كان أليفاً جداً وكأني أعرفه منذ قرون. رفعتْ رأسها قليلاً وهي تسترق النظر إليّ بخجل، وحينما التقت نظراتنا، تسمرتْ في مكانها وكادت تسقط على الأرض فتمسكتْ بطرف الطاولة. تطلعتْ إلي بذهول ثم رمت نفسها عليّ وهي تصرخ:

«حميد!!.. ولدي!!..»

عانقتُها بحرارة. ارتفع صوت نشيجنا. دفنت رأسي في صدرها. كانت رائحة فوطتها قد أعادت لي حاسة الشم التي كنتُ قد افتقدتها منذ زمان بعيد. لم تمضِ سوى بضع دقائق حينما انتبهتُ إلى جسدي وقد راح

يصغرُ شيئاً فشيئاً حتى صار بحجم رضيع. حملتني من تحت إبطي ثم ضمتني إلى صدرها باكيةً وهي تردد:

«صغيري... ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

وحينما هدأتْ، تطلعتْ إلى وجهي بفضول كأنها تريد قراءة في تجاعيده ما تركته السنون. مسحتْ بفوطتها الدموع التي هدرتْ على صفحتي وجهها وكررتْ عليّ ما قالته النادلة الدنماركية وأضافتْ:

«أمس كان السيد نوح هنا وكان حزيناً. كان يشكو من طول عمره غير المجدي. شرب كثيراً، وحينما ثملَ راح يتوعد نفسه بالانتحار، ثم غادر الحانة كأنه عازم على أمر ما.»

توقفتْ قليلاً ثم قالت:

«أظنه سينفذ وعده وربما قد نفّذه».

أصغيتُ إليها بألم ورأسي يكاد يخترق صدرها، ثم رحتُ أصغر أكثر فأكثر حتى شعرتُ كأني أسبح في رحمها جنيناً مبتهجاً بسجنهِ ويرفض الخروج.

إشارة

على باب حانة (مفترق الطرق) حُفرتْ قصيدةٌ لم يُذكر اسم شاعرها:

كان الطريقُ إليهِ صعباً؟
أم تُراني
لم أكنْ هيّأتُ نفسي للرحيلْ؟

فيقولُ بطرانٌ:
«إذنْ عدْ مرة أخرى
ولا تتبعْ خطاكَ
ولا تثقْ برؤى الدليلْ».

ثَمِلٌ يهمهمُ وحدهُ:
«غافلتُ صحوي
واندسستُ بغيمةٍ»

نهضَ الندامى رافعين كؤوسهم
لَغْطٌ

زغاريدُ
ونادلةٌ أراقتْ خمرَها
فَرَحاً بعودةِ غائبينَ
يقودهم شيخٌ جليلْ

صمتٌ
وإصغاءٌ
يعبُّ الشيخُ كأساً
ثم يمسحُ لحيةً بيضاءَ غطّتْ صدرهُ العاري
وسالتْ دمعةٌ
«يا نوحُ
أخبرنا بما لاقيتَ!»
قالَ البعضُ ممنْ ضاقَ بالصمتِ الثقيلْ

«لا شيءَ
غير الريحِ
والأفقِ المراوغِ
والرهان المستحيلْ».

«هو بينكم
أفلا ترونهُ!؟»
قال عابرٌ لاسبيلْ

٣/ ١٠/ ٢٠٠٣ ـ ٦/ ٢/ ٢٠٠٤ فايله / الدنمارك

صدر للكاتب

(.) أقول احترسْ أيها الليلك ـ شعر ـ ١٩٨٦

(.) واقف بين يدي ـ شعر ـ ١٩٨٧

(.) بم التعلل؟ ـ شعر ـ ١٩٨٨

(.) تضاريس الداخل ـ شعر ـ ١٩٩٢

(.) حديقة جورج ـ شعر ـ ١٩٩٤

(.) كمائن منتعظة ـ شعر ـ ١٩٩٨

(.) أصغي إلى رمادي ـ فصول من سيرة ذاتية ـ ط١ ٢٠٠٢، ط٢ ٢٠٠٣

(.) ثمة أشياء أخرى ـ قصص ـ ٢٠٠٤

(.) الفادن ـ شعر ـ ٢٠٠٥

(.) الضلع ـ رواية ـ ٢٠٠٧

(.) الفئران ـ رواية ـ مخطوط

(.) مُنادى لا يسمع ـ شعر ـ مخطوط

(.) في اليوبيل الفضي لموتي ـ قصص ـ مخطوط

الفهرس

هذا الكتاب

. . . هكذا فجأة اكتشفَ بعضنا أن هناك أموراً كثيرة عليه تصفيتها قبل العودة، حتى الذي كان عاطلاً عن العمل اكتشف أن له عملاً يجب إنجازه ومهماتٍ يجب إتمامها، البيت، العائلة، الأطفال ومدارسهم وهل بإمكانهم تحمل حرارة الطقس والتلوث البيئي الذي انتشر في البلد من جراء الأسلحة التي استخدمت في الحروب؟

«لتكن سفرة اكتشاف أولاً».

«سنترك عوائلنا هنا ونعود وبعدها سنقرر العودة جميعاً إلى الوطن الحبيب».

هكذا وجد البعض حلاً لهذه اللاقناعة، لذا فقد كانت قافلتنا تضم رجالاً وبضع نساء امتصت الغربة شبابهن فلم يبق منهن سوى ذكرى أنوثة، نساء وحيدات، عوانس، مطلقات، أرامل، ركاماً، هشيماً، كتلاً سوداء خاوية تقذفها ريح صفراء فيتلاشى أنينها مع صفير العواصف الرملية فلم يبق من دليل على آدميتها سوى الحزن اللامع في العيون.

